A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

AUB LIBRARY

843
B73mA

رواية

المركيز جان

للڤيكونت هنري ده بورنيه

تعريب

الخوري اسطفانه فريحة البشعلاني

بيروت
المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين
١٩١٣

تشرين الاول سنة ١٨٦٨ وقد خيم فوقهم السرور وكان في مقدمتهم رجل يناهز الخامسة والخمسين استوى فوق صهوة جواده وقد وخطه الشيب وارتسمت في وجهه دلائل العظمة والاقدام لكن عينيه كانتا تتوقدان ذكاء ولطفاً وعليه امائر البشاشة والانس

والتفت هذا الرجل الى من حوله وقال : اضبطتي عنان جوادك حسناً يا ابنتي ريموندة لان هؤلاء المزارعين الذين يدقون ثيابهم عند المغسل منظرهم بهيج لكن يخشى ان يجفل الجواد من صوت مدقاتهم

— كن مطمئن البال يا والدي فلست اريد الوثوب الى النهر بل اكتفي بالنظر الى جمال مائه واتمتع بخريره المطرب . قالت هذا واشارت بالسوط الذي كان في يدها الى الشلال الصغير المتدفق عند المغسل

ريموندة هذه كانت تشبه والدها في طول القامة وقد ارتدت ثوباً خاصاً بالركوب يناسب قوامها البديع وعلى رأسها قبعة بان من تحتها شعر اسيل يظلل عينين سوداوين وكان وجهها فتاناً تلوح عليه ملامح الوقار والرزانة ولولا ما يظهر عليها من دلائل الكبر والاعجاب لكانت مثال الحسن والكمال

وكان وراء الاب والابنة شابان قد امتطيا جوادين من الخيول

المطهمة وكأنهما عرفا قدر فارسيهما فبدت عليهما سيماء الكبر والخيلاء وكان خلف الجميع خادمان بلباسهما الرسمي

وما كان غير قليل حتى عبروا الجسر ودخلوا شارع قرية مرسيلي التي كانت اشبه شيء بالمراسح الهزلية وقد جلس نساؤها على الابواب ينظرن الى اولئك الفرسان فقالت احداهن ولعلها اغناهن لجاراتها بصوت منخفض هذا هو المسيو ديزورم العضو في مجلس الشيوخ ومعه ابنته وابن شريكه لانني عرفتهم يوم اجتماع برش

وواصل المسيو ديزورم ورفاقه السير حتى ظهر عن شمالهم قصر من قصور اصحاب الاقطاعات قائم على رابية تحيط به الاشجار الباسقة القديمة العهد وقد فتح باب ذلك القصر الحديدي كأنهُ يدعوهم الى الدخول فاوقف الاب جواده وقال لابنته

— اتريدين ان نزور عقيلة ده شازه

— فاجابته ضاحكة: لا يليق بنا يا ابتِ ان نزور اليوم سيدة من سيدات الحكومة القديمة. وبعد حديث قصير عن الاحزاب في فرنسة قالت الفتاة: كم اشتهي يا والدي ان يكون لي قصر مثل قصر مرسيلي فاملأه بالزجاج الملون وافرشه بالرياش القديم وكم يعجبني منظر ابراجه وحصونه المنيعة

— ان مبادئك هذه تنطبق على مبادئ ابطال العصور القديمة بعد ان تكوني اقتبست هذه المبادئ من تواريخ تلك العصور

— انني اعد قولك هذا يا والدي تقريظاً لي

— نعم ولكن قصر مرسيلي لا يباع وليس من اخربة غيره في هذه النواحي الّا اخربة قصر فوجور وقصر شاتو لافاليار والاول قائم في مكان كله مستنقعات

— ان افكاري مصروفة الى الاقامة في قصر بقيت فيه اثار ماداموازال لافاليار فاذا تحققت اماني هذه يوماً وحصلت على قصر من هذه القصور فعلت فيهِ باذنك العجائب

— ذلك ميسور لك لان لديك في المصرف مبلغاً لا يقل عن ثلاثمائة الف فرنك

واراد راعول اخوها مداعبتها فقال : ارى الاولى بك ان تنتظري مشورة رفيقك المقبل . وعنى بالرفيق من سوف يكون لها حليلًا

فاجابته : ان رفيقي لم يتم بدره حتى الان

— ولماذا وانتِ الان في الثانية والعشرين ربيعاً وهو احسن الاوقات لانتخاب رفيق الحيوة

— مالنا ولهذه الممازحة الان يا راعول . فهلم نعدو

فساروا والنهر عن يمينهم وهو ينساب في تلك الشعاب كالافعوان بين اشجار الصفصاف وقد مروا في طريقهم بقصر المولن ولم يبق منه الّا جانب واحد . واذا بريمونده قد وقفت بغتةً عن الجري وقالت :

انظر يا راعول الى ما فوق تلك الاكمة

— لا ارى الا اغصاناً تلوح في الهواء وبيتاً لبعض المزارعين وفيه برج للحمام

— ان ما توهمته بيتاً حقيراً انما هو صرح من صروح القرن الخامس عشر وبرج الحمام هو برج ذلك الصرح. والتفتت الى والدها وقالت لهُ: ارجو منك يا ابتِ ان تأذن لنا بالذهاب الى ذلك المكان

قالت هذا ووجهت جوادها دون انتظار الاذن الى مضيق يفضي الى ذلك الصرح .

٢

الصرح القديم

ما كان غير قليل حتى وقفت ريموندة وابوها واخوها والمسيو فردريك ابن شريك المسيو ديزورم امام رتاج عظيم قد علا حديده الصدأ لطول العهد يفضي الى صحن دار قد ذهب بعض بلاطه والبعض الاخر مبعثر وفي طرف الفناء الخارجي بعض بيوت للمزارعين متهدمة ولم يبق من القصر سوى قسم من الدرج الموصل الى الباب الخارجي وكثير من حجارته مفقود وما بقي سالماً يتداعى الى السقوط

اما النوافذ والشبابيك فقد حل بأكثرها الدمار وبانت على السقف والجدران اثار دخول مياه المطر وبالجملة كان القصر قد عملت فيه مؤثرات الايام وكأني به ناطق يبكي لما نزل به من الخراب. ولم يسلم من كوارث الدهر الا شجرتان قديمتان من شجر السنديان تظللان اخربة ذلك القصر باغصانهما كأنهما تشاركانه في البكاء والنوح

ولما صار الفرسان المذكورون على مقربة من الصرح سمعوا نباحاً ورأوا كلباً كبيراً خرج من بين الاشجار وهجم عليهم. لكن صوتاً ناداه قائلاً: ارجع يا كلوديون ارجع الى هنا. فاطاع الكلب وعاد وهو يهر وربض عند رجلي شابٍ كان جالساً الى شجرة وقف وبيده عصا خشنة وجعل يتأمل الفرسان الذين كانوا ينظرون ايضاً ولم يخاطبهم بكلمة. وكان على رأس الشاب قبعة كبيرة من القش وقد ارتدى ثوباً من المخمل الاسود مما يلبسونه في وقت الصيد وفوق حذاءه شيء من الجلد يغطي ساقيه. وشعره الطويل مسدول على كتفيه العريضين وله وجه نحيف بان فيه الاصفرار وعينان سوداوان ينظر بهما بذلةٍ وانكسار. وكانت كل هيئته وملامحه تدل على الفقر والضيق كأن قد لحقه شيء مما نزل بذلك القصر من الخراب والشقاء.

فقالت ريموندة لوالدها بصوت خافت:

الارجح ان هذا الشاب ابن احد المزارعين

قالت هذا وتقدمت نحوه وسألته بلطف :

الا تصنع الينا معروفاً يا فتى

فعند قولها يا فتى نزع الشاب قبعته ورفع بصره اليها ورشقها بنظرة تدل على الكبر وعزة النفس فاحمرت خجلاً واخذتها الحيرة فاستطردت الكلام وقالت :

عذرًا يا سيدي فاننا غرباء البلاد وقد رأينا في طريقنا هذا الصرح فاحببنا ان نعرج عليه لنعرف اسمه رسمه

وتقدم اذ ذاك ابوها وقال : ارجو منك يا سيدي ان تعذر ابنتي على تطفلها فان لها ولعاً بالفنون الجميلة حتى ان قصرًا كهذا يحملها على السؤال بلا تحسب

— قال الشاب : ولكن الاديب لا يفعل شيئاً الا بعد التروي والتبصر . ورجعت الى وجهه علامات السكون والرزانة

— اذًا يا سيدي ما اسم هذا القصر ؟

— الليزارديار

— حبذا الاسم والمسمى فهل يمكن زيارته ؟

وهنا احمرَّ وجه الشاب في دوره وبعد ان فكر قليلاً قال بكبرياء :

ولم لا . ولا وجوب للرفض . فاتبعوني ان شئتم

فتركوا خيلهم بايدي الخادمين وتبعوا الشاب الذي دنا من

الرتاج ففتحه وتنحى قليلًا ودعاهم بادب للدخول وكان الكلب يدور بين صاحبه وبين اولئك الضيوف كانه غير راضٍ عن زيارتهم

— فقالت ريموندة ضاحكة : يظهر ان الكلب غير راغب في زيارتنا

— ولكنه خادم امين لسيده فيفهم مقاصده ويجري اوامره. اذهب يا كلوديون واحرس العنزة

فللحال اسرع الكلب يريد الحقل الذي كانت اشجار السنديان تحجبه عن الابصار وسمع صوت ثغاء العنزة يؤذن بوصول الكلب

*

اذا تأمل الزائر خارج ذلك الصرح رأى فيه شيئاً من محاسن الاثار القديمة لكنه لا يلبث ان يرى في داخله اثار الشقاء. لان ارضه كانت عارية من كل فرش خالية من الاثاث والرياش وقد ارخى العنكبوت على الجدران سدولاً ونسج على النوافذ سجوفاً ولم يكن لارض الغرف بلاط ولا لشبابيكها زجاج فضلًا عما في ذلك المكان من العفن والرطوبة

على انه كان في احد جوانب الصرح معبد لم يزل عليه مسحة من الرواء لانه صنع على الطراز القديم فاحتمل كرور الايام ونجا من كوارث الدهر فبقي على رونقه وما زال الملاكان المصنوعان من الحجر يحرسان المذبح وكأنهما يصليان عن انفس اسياد ذلك

البيت الراقدين تحت القبة. ولم يمس احد كرامتهم حتى ولا في ايام الثورة المشهورة

ولم يسع ريموندة عند ما تركت المعبد الا ان قالت: ان المعبد اصلح حالاً من سائر الاماكن في القصر

فتغير لون الشاب وقال:

« ان الطبقة العليا ليست مهجورة كالسفلى ايتها الانسة فهل تريدين الصعود اليها ؟

قال هذا وصعد امامهم على سلم من خشب السنديان كان يهتز تحت ارجلهم لانه كان قد رثّ ولكن اثار الحفر لم تزل ظاهرة عليه مع ما كان فوقه من التراب

وقد رأت ريموندة ان الطبقة العليا كانت حقيقة على ما وصفها الشاب وهي تحتوي على قاعة كبرى يدخل النور اليها من كل الجوانب لوجود صفين من النوافذ الواحد فوق الاخر. وكانت القاعة من الاتساع بحيث ان ما بقي من الاثاث لم يكن يستلفت الانظار. وكان هناك سرير ستائره من الحرير الاحمر وفي الوسط منضدة من خشب السنديان قد اسودّت لطول العهد وكرسيان كبيران عليهما شيء من القماش المطرز وصور بديعة متنوعة. وعند السرير مستوقد ركز فوقه عواميد من الحجر الصقيل. وفوق المستوقد حجر من هذا النوع منقوش عليه

الاية الثالثة من الفصل الثالث عشر من رسالة بولس الاولى الى كورنتس وقد امكن قرأتها مع ما مر عليها من السنين وهي « لو اطعمت مالي كله المساكين واسلمت جسدي للنار ولم يكن فيّ محبة لم استفد شيئاً » وفوق الاية شعار يشتمل على صورة مجموع اسلحة

فقالت ريموندة لابيها : لا اقدر ان اقرأ الكتابة في الشعار فهل لك ان تساعدني على قراءتها

قال: اظن ان معرفتي بهذه الكتابة لا تزيد عن معرفتك ولا اظن ان راعول وفردريك يستطيعان شيئاً من ذلك

قال هذا ونظر الى الشاب مستفهماً

فقال الشاب :

هذا الشعار يتضمن صورة اسلحة آل ليزرديار وتاج مركيز منهم وحلقتين وحيوانين من الغريفون « وهو حيوان خرافي نصفه اسد ونصفه نمر » ورمز العدل

وكانت ريموندة تصغي الى هذا الوصف كل الاصغاء ثم التفتت الى مجموعة الصور والكتب القديمة التي فوق المنضدة واذ لم تحفل بها كثيراً قال لها الشاب :

اظن ان هذه الاثار جديرة بالالتفات

— نعم وانني من المولعين بجمع هذه الاثار الثمينة

واخذت تقلب صفحات كل كتاب وتقول شيئاً عما تعرفه من امر مؤلفـه وزمن طبعه مما دل على مقدرتها في صناعة الادب ثم اخذت مجموعة الصور وهتفت لله ! ما اجمل هذا الرسم !

وقد دهشت لرسم طواحين نهر المولن وقالت ان هذا غاية في الابداع فمن هو مصوره ؟

— انا يا سيدتي

— احقيق ما تقول ؟ وذلك الرسم الزيتي على الحائط

— هو ايضاً رسمي

— وذلك الرسم البديع الذي يمثل رأس المسيح

— وهو كذلك من عملي

— لعمري انهـا كلها آيـة في الابداع وكان من اللازم ان تحسن موهبتك

— انني لا ازاول هذا الفن

— ولم لا تزاوله وهو فن شريف

ونظرت اليه نظرة اعجاب مقرونة بالاحترام . وكان في تلك النظرة من معاني المدح والتقريظ ما يغني عن كثـير من عبارات الاطراء الفارغ

ثم التفتت الى والدها وقالت له :

قم بنا الان يا ابتِ نتزل الى الطبقة السفلى فـان لي كلاماً

اريد ان اقوله لك

ولما صاروا في فناء القصر الخارجي اخذت ريموندة والدها الى جانب شجرتي السنديان وحادثته قليلًا وعادا الى الشاب. فقال لهُ المسيو ديزورم :

ان ابنتي وطنت النفس على ابتياع هذا الصرح فهل لك ان تتكرم علينا باسم صاحبه وما تعلمه من امره

فاكمد لون الشاب واصطبغ وجهه بصفرة الموت ولكنه تمالك واجاب :

ان صرح الليزارديار ليس للبيع

قالت ريموندة : ولكنني ادفع ضعفي قيمته

— ومع هذا لا يباع

— اذًا ان صاحبه صعب المراس مستبد برأيه

— هذا امر لا اعرفه . والذي اعلمه حق العلم ان صاحب القصر لا يحب مفارقة مكان عليه اسم اسرته وفيه شعارها ولو كان خراباً

— فهو اذًا المسيو ليزارديار احد اخلاف هذه الاسرة

— بل هو المركيز ده ليزارديار . واختصر لكم قصته بهذه الكلمات :

كان هذا القصر من عهد بعيد مع ما حوله من الحقول

والغابات ملكاً لآل ليزارديار. وفي سنة ١٧٩٢ نفي جد المركيز والمالك الحالي. وعند رجوعه من منفاه سنة ١٨١٤ وجد الصرح خراباً ومعظم الاملاك باعته الحكومة. فاشترى شيئاً من الاملاك مع ما كان عليه من العسر. وقد كان اقترن مدة منفاه بابنة فقيرة مثله لكنها ذات حسب ونسب. ثم توفي الاثنان تاركين وحيداً خدم في الحرس الملكي حتى سنة ١٨٣٠ وتزوج هذا ايضاً بابنة فقيرة غير انها كانت تضاهيه شرفاً وقد توفيا تاركين صبياً وابنةً هي الان راهبة في بعض الاديرة

قال المسيو ديزورم: فصاحب القصر اذاً في عنفوان الشباب

— نعم وهو امامك واسمه: جان مركيز ده ليزارديار

— اننا نرجو منك صفحاً عما بدا منا لان وجودنا في هذه الناحية لم يكن الا من بضعة اشهر. وانا المسيو ديزورم

— انك من اعضاء مجلس الشيوخ. والذي اعلمه انك من كبار الاغنياء. ولك املاك واسعة ومعادن في اوفرجن واندر. ولك قصر في باريس. ولست احسدك على ملايينك وانما ارجو منك ان لا تطمع بحجارتي هذه القديمة

قالت ريموندة: ولكن يخشى ان تسقط على رأسك

— احب اليّ ان تسقط على رأسي من ان ابيعها

— لعمري انك بعد هذا شاذ عن القياس بل انت . . . ماذا اقول

— بربري . همجي . واني لمبرهن لكِ ذلك بحرية لا تخرج بي عن حدود الاداب . انني لا احب اسمكم اذ انه يعيد عليَّ تذكارات مؤلمة . لان اباك وابي قد تخاصما يوماً في باريس سنة ١٨٣٠ ونحن لسنا ممن يتناسون مثل هذه الامور

اجاب المسيو ديزورم : لست الومك على هذا بل قد زادني ذلك اعتباراً لك . ولكن بعد ان نتعرف الى بعضنا حسناً نتكلم عن الامور السياسية . فقط اسمح لي ان اقول لك : لقد كان الاجدر بك ان تكون نشأت في عصر غير هذا العصر

فقالت ريموندة : نعم في عصر تقوم فيه حجتي ولا بد لي قبل انقضاء هذا العام ان ارمم هذا القصر على صورة لا تبقي مطمعاً لراغب

قال الشاب : وتدعيني الى الاحتفال بانجاز ترميمه

ثم اخذته عزة النفس فاستتلى قائلاً :

كلاَّ انني احب بقاء قصري على هذه الحال وسيبقى ابداً خراباً واكرهه اذا تغير عما كان عليه . نعم انني فقير معدم وليس معي الا خادم لي تولى تربيتي . وبالكاد يكون لدي ما يسد رمقي . ولي عنزة تعيش على العشب وكلب لا يهمه امر طعامه

لانه اذا لم يتهيأ لي بارود للصيد ذهب الكلب الى الغاب واحتال لمعاشه. واني اعد هذا العسر يسراً لقربي من ضريح والدي انثر الزهر عليه كل يوم ولا ارى احداً غيري يقوم بهذا الواجب...

- انك غير مصيب بهذا فانا سوف...

- ان القبور ايتها الآنسة لا تباع وتشترى فان رفات اجدادي وابائي ستبقى تحت عنايتي حتى تضمني اليها يد الموت

قال ديزورم: كفى يا بنية. فان الشاب قد اعترف بفقره بصورة شريفة الى حد ان صار من الواجب علينا الرجوع عن طلبنا

وهنا تقدم فردريك وكان اقل لطفاً من المسيو ديزورم وقال: ولكن لعل للمركيز دائنين

قال الشاب: لا احد والحمد لله لهُ علي دين البتة. فانني وان كنت فريسة الفاقة فلست اسير الدين. ولم اقبل عطية من انسبائي حتى انني قطعت زيارتي لاسرة ده شازه مخافة ان يستحيوا بظهوري بمظهر الفاقة لدى زوارهم المعتبرين. واعلموا انني قبل ان ابيع قصر الليزارديار اجعله طعاماً للنار

قالت الفتاة: بالحقيقة انك اشد كبراً مما توهمك والدي. ولكن مهما يكن من الامر فانني على تمام الثقة بالحصول يوماً على هذا الصرح

فاخذت الحدة عند ذلك من جان ورفع يده دفاعاً عن قصره

ولكنه ما لبث ان انتبه لنفسه ونظر الى الفتاة بادب ولطف وقال متبسماً :

عفواً يا سيدتي انني كدت اتجاوز حدود الحكمة والرزانة على انه لما كنت من الذين يميلون الى الفنون الجميلة والاثار القديمة فان لي حقلاً فيهِ اثار وثنية اقدمه لك هبةً لا بيعاً . فهل تروق لك تقدمتي ؟

— انني اقبل تقدمتك يوم استطيع ان ادعو هذا القصر قصري

— هذا لا يكون ابداً

— بل ان ذلك قد يكون . ثم تبادل الفتى والفتاة النظرات ووقعت العين على العين كما يقع السيف على السيف

واذ ذاك قال ديزورم . قومي نذهب يا ابنتي فقد قضي الامر ولنشكر المسيو ده ليزارديار على ادبه وتلطفه بالسماح لنا بمشاهدة هذا الصرح الفخيم

ثم ان جان ساعد ريموندة على امتطاء جوادها بأدب ولطف . وبعد ان تبادلا النظرات ضربت الفتاة جوادها فاندفع يجري بسرعة البرق حتى اذا صارت في سفح الاكمة تلفتت عن بعد الى حيث كان الشاب وقالت بصوت منخفض . يا لك من رجل مستبد

وفي الوقت عينه كان جان يتبع الجماعة بنظره وفي النفس ما فيها من الغيظ والاباء

٣

رجوع الخادم

بعد ان غاب المسيو ديزورم ومن معه عن العيان في جهات نهر المولن ولم يعد جان يرى ثوب ريموندة الاصفر عاد فجلس الى شجرة من اشجار قصره ثم صفر لكلبه كلوديون فاسرع اليه وكان الكلب مع كبر سنه لم يزل جميل الطلعة. وسمي كلوديون لطول شعره الحريري الذي يشبه شعر آل ميروفه ملوك فرنسة الذين كانوا يرسلون شعور رؤوسهم

وكان من عادة جان ان يمر يده على شعر الكلب الناعم ويتيه في بيداء الفكر ويسبح في فضاء التخيلات وهكذا فانه اخذ يلاطف كلبه الذي كان ينظر اليه بعينين تتوقدان محبة وفطنة

ثم قال جان: اتعلم ماذا يريدون يا كلوديون ؟

قال هذا واشار الى الجهة التي غابت فيها ريموندة

وكأن الكلب فهم اشارة سيده فاخذ يهر حتى بانت اسنانه الحادة . واستطرد جان الكلام فقال: نعم ان تلك الفتاة تريد ان تسلبنا القصر واشجار الكستناء والعزبة بل وربما انت ايضاً يا كلبي الامين

فاخذ الكلب ينبح ثم عاد ينظر الى سيده نظر المتعجب

ثم قال جان: قد تكون يا كلوديون احسن حالاً عند تلك الانسة فترقد في مكان نظيف وفراش ناعم ويوضع في عنقك طوق جديد وتتناول الطعام ثلاث مرات كل يوم واذا شئت فتصطاد في الغابات. فهل ترغب في الذهاب الى هذه الفتاة الحسناء؟ نعم؟ فاذهب اذاً. واشار اليه بالذهاب

فمشى ولكنه ما كاد يبتعد بضع خطوات حتى عاد والقى برأسه على ركبتي سيده

فقال جان: اراك لم تذهب يا كلوديون اذاً تفضل الاقامة مع صاحبك في الفقر والفاقة. لقد احسنت بمحافظتك على الامانة فلعمري ان الامانة فضيلة تركها الناس للكلاب. على ان هنالك وجهاً اخر يا كلوديون وهو ان الكلاب في بيوت الاغنياء لهم اخرة رديئة محزنة لانهم اذا عجزوا عن الصيد قتلوا

ثم تنهد وقال: وبيرارد يريدون ان يأخذوه مني. لكن لا. فهو امين مثلك واكثر. تظن يا كلوديون ان قد حان وقت رجوع بيرارد فقد ذهب الى قرية لِيدْ الى السيدة اونوره لاستيفاء الثلاثماية فرنك قيمة الدين الذي لي قبلها لانني باضطرار الى المال اذ ليس لي غير هذه القيمة وما هي بالكثير لقوت رجلين وكلب

وهنا تقدم الكلب ينظر الى جهة الباب واذا برجل شيخ

اقبل وقد ارتسمت على وجهه سيماء الحزن وحنى ظهره غماً فبادره جان قائلاً: ما وراءك يا بيرارد

قال: اخبار محزنة يا مولاي فان السيدة اونوره لا تستطيع دفع المبلغ لاهذه السنة ولا السنة المقبلة لان زوجها كما لا يخفى عليك قد مات وانفقت مبلغاً كبيراً لاثبات الوصية. ثم ان ولدها الاكبر كسر رجله بينما كان يقطع حطباً في الغاب ولذلك هي اولى بمساعدة الغير من دفع ديونهم. ولقد ادركت اسفها الشديد عند ما قالت: انني لا استطيع ايفاء دين المركيز الذي كان والده رحمه الله محسناً الينا اذ قرضنا منذ عشرين عاماً ستة الاف فرنك اشترينا بها حقلنا هذا فاذا شاء بعناه ودفعنا لهُ دينه

— لا يا بيرارد اما كفى ما نحن فيه من الشقاء حتى نجعل غيرنا اشقياء. على انه ما الذي يحل بنا بعد هذا وقد كنت اعتمد على هذه القيمة لدفع ما بقي علينا من الاموال الاميرية

— ان عقاراً يدفع عنه ثلاثمائة فرنك ولا يحصل منه مائة لهو بلاء على صاحبه

— ما العمل يا بيرارد فان هذه الضريبة على الابواب والنوافذ قد انزلت بنا الخراب والدمار

فقال بيرارد:

ذلك فضلاً عن مال الاعناق عنك وعني وعن كلوديون لان

الكلاب ايضاً مكلفة بدفع الضرائب

اجابهُ المركيز جان:

- لولا ذلك لكنا نقضي هذا الشتاء براحة يا بيرارد اذ لنا من الدقيق ما يكفينا وعندنا كيسان من البطاطا وبرميلان من عصير التفاح عدا عن الكستناء التي يوجد منها لدينا شيء كثير

- لا سعادة للابرار في هذه الدنيا يا مولاي. ان الله غير عادل

- لقد اخطأت فيما تكلمت يا بيرارد ان الله تعالى عادل جواد ولكنه يؤتي الرزق من يشاء ويحرم من يشاء فلا اعتراض على احكامه

- لا ادري هذا يا مولاي ولكن الثلاثمائة فرنك التي خاننا الحظ ولم نحصل عليها كانت كافية لسد حاجاتنا وشراء شيء من اللحم الذي انت بحاجة شديدة اليه فان قلبي ينفطر كلما رأيتك نحيل الجسم مصفر اللون. ولا غرو فان قليلاً من اللحم ضروري لمن كان في سنك بخلاف ما اذا كان في عمري فان شيئاً من البطاطة يكفيه

- ان هنالك اموراً كثيرة مرَّة يا بيرارد الا وهي التذكارات المؤلمة.. ولكن اين كلوديون ؟ »

- رأيته منذ دقائق راكضاً الى جهة شجرة الكستناء

- ان هذا موعد خروج الارانب من اوكارها وكلوديون

سينال عشاء افضل من عشائنا

وللحال سمع صوت نباح من جهة الغاب ولم تمضِ هنيهة حتى اقبل كلوديون وفي فمه ارنب كبير وضعه بين يدي سيده كما تفعل كلاب الصيد. فقال جان:

هذا الارنب يقوم مقام لحم الضان الذي تمنيته يا بيرارد فتأمل بجودة الله تبارك وتعالى

وما كان غير قليل حتى اسرع بيرارد في اعداد الارنب. وبعد نصف ساعة كان بخاره يتصاعد على المائدة في القاعة الكبيرة والى جانبه زجاجة من شراب التفاح. وان رجلاً كجان لا تقوى الاحزان على ان تطرد منه شهوة الطعام. ولكنه لم يبتدئ بالاكل حتى رمى بقطعة لحم الى كلبه الذي تلقفها دون تردد. وناول قطعة اخرى الى بيرارد الذي اعد العشاء وقد رفض قبولها اولاً لكن اوامر جان الصارمة اضطرته ان يقبل فجلس مقابل سيده واخذا يأكلان وكانت الفاكهة قليلاً من الكستناء وعصير التفاح

ولما رفع الخادم ما بقي من الطعام لم يتمالك جان من ان يقول في نفسه: انني منذ ستة اشهر لم ادخن لفافة تبغ البتة فلو كنت غنياً...

وهنا امسك عن الكلام لدخول بيرارد الذي تقدم برزانة ووضع بين يدي سيده صحفة رسم عليها شعار اسرة ليزارديار وهي

من التحف القديمة العهد وجعل بالقرب منها سيكارين من سيكار هافانا قد ربطا بشريطة فنظر جان اليهما متعجباً والتفت الى خادمه وقال: من اين لك هذان وكيف اشتريتهما

— لا يخفى عليك يا مولاي انني كنت في صغري نجاراً فبعد رجوعي من منزل السيدة اونوره لقيت صديقاً لي وهو تاجر اخشاب يشتغل امام بيته. فرآني ولم ينقطع عن العمل كمألوف عادته لنتحادث. واذ عاتبته اخبرني بان عليه بعض اشغال يقتضي انجازها قبل انقضاء الاسبوع. فعرضت عليه مساعدتي فقبل بطيبة خاطر. وبعد ان اشتغلت عنده ساعتين اعطاني فرنكين فشكرت له ذلك ومضيت حتى صادفت بائع تبغ كان صديقاً لي فعاتبني على تركي له فابتعت منه علبة تبغ وغليوناً جديداً وهذين السيكارين ولم اظهرهما الا الان بعد الطعام

فسر جان من تصرف خادمه وناولهُ سيكاراً واخذ الاخر فرفضه قائلاً: لا يا مولاي ان هذا لا يوافقني. ولكن ان شئت خرجت خارجاً ودخنت شيئاً من التبغ بالغليون الجديد الذي اشتريته

— ليس خارجاً يا بيرارد بل هاهنا بقربي وليس في الغليون الجديد بل.. انتظرني قليلاً: وقام الى سريره حيث كان الى جانبه كثير من الاثار والتحف مثل اسلحة وصليب مار لويس

وصليب جوقة الشرف. ومع هـذه غليون صيني معلق ببند السيف فاتى بهِ وناولهُ الخادم قائلًا: هذا الغليون افضل

فصاح بيرارد: غليون المرحوم سيدي المركيز

— نعم وانني اعطيكه

فاخذه الخادم بهدوء وملأه تبغاً. امـا الكلب فكان يلهو الى ذاك الوقت بقطعـة اللحـم حتى فرغ من اكلهـا واخذ يهرّ ويبصبص بذنبه وينظر الى المستوقد الخالي من النـار. فقال جان: ان كلوديون برَد فاذهب وأتِنـا بشيء من الحطب لنضرم النـار ويتم سرورنا. وما كان غير قليل حتى لمعت النار في المستوقد. فاخذ جان كرسياً وجلس الى النار واشار الى بيرارد فاخذ كرسيه وجلس وتمدد كلرديون بين السيـد وخادمه موجهاً رأسه الى النار بسرور عظيم وكان دخان سيكار جان وغليون بيرارد يتصاعد في الغرفـة حتى حجب شعار آل ليزارديار المنقوش في الجدار

وكان بيرارد ذهب بهِ الفكر الى ماضي حياته فاخذ يتكلم كأنهُ وحده ويقول: لقد تذكرت كيف كان المركيز يبكي وهو يدخن بهذا الغليون يوم كان قائداً الفرقة التي رافقت الملك شارل العاشر الى شاربورغ وكنت انا في خدمتهِ. وما كادت السفينـة التي اقلت الملك الى المنفى تغيب عن نظر المركيز حتى امتقع لونه ثم اخترط سيفه وكسر نصاله ورمى بهِ في البحر ووقف لا يبدي ولا يعيد. اخيراً

تمالك وخطا خطوات قليلة فجلس على صخر واخذ يدخن بغليونه والدمع يترقرق في عينيه

وهنا انتبه بيرارد لنفسهِ وقد انقطع دخان غليونه فاشار اليهِ المركيز ان يتبعهُ . ودخل الاثنان معبد القصر بكل احترام وسجدا عند اقدام المذبح . وكان يسمع في سكون ذلك الليل البهيم صوت انشادهما طلبة السيدة العذراء . وبعد ذلك قصد جان غرفته ليرقد في سرير اجداده فنام نوماً هادئاً . لكنهُ انتبه كأنهُ يسمع صراخاً وقد حلم بان فتاة حملت كلوديون وذهبت بهِ والكلب يستغيث وينظر الى صاحبه بذلة وخيبة . والتفت جان الى ما حوله فلم يتمالك من الضحك لان كلوديون كان لا يزل مضطجعاً على فراشهِ القشي وربما كان يحلم بصيد الارانب في الغاب

٤

شهامة مأمور

قام المركيز من نومهِ وقد طلع الصباح . وما لبث ان سمع صوت غريب في فناء الدار فاسرع بالنزول فوجد شاباً يتكلم مع بيرارد ودنا الغريب من المركيز وحياه بمنتهى الاحترام وقال :

انك لم تعرفني يا سيدي المركيز فانا هو فرنسيس ديشامل مأمور

قرية نويانت وقد رجوت بيرارد ان يتركك تنام فالانسان يستيقظ احياناً ليسمع ما لا يسره. ولا بد لي اولاً ان اقول لك ان والدتي كانت تشتغل في حقل ريكودراي وقد توفيت وانا صغير. وما لبث ان توفي بعدها والدي فاصبحت يتيماً معدماً يرميني الاولاد بالحجارة. ولم يكن من يرأف بي الا المركيزة والدتك رحمها الله فانها اعتنت بامري وادخلتني المدرسة فتهذبت وحصلت ما يتمكن من تحصيله من كان في عمري. واتفق انني شهدت يوماً حادثاً مؤثراً جرى في القرية وهو ان جماعة من الفلاحين اضطروا الى التخلي عن حقوقهم الشرعية في عقاراتهم لعدم تمكنهم من دفع ما عليهم من الديون وكان المأمور المكلف بتحصيل الاموال يسيء معاملتهم الى حد انهُ لم يعد بوسعي احتمال قساوته الوحشية. وما زال هذا المشهد مرتسماً في ذاكرتي حتى اذا كبرت قلت في نفسي لا بد لي من ان اكون مأموراً واكون حليماً في تحصيل الاموال واقاوم قسوة اولئك المأمورين. ولما صرت في العشرين من عمري مضيت الى تور واديت امتحاناً وما لبثت ان عينت مأموراً لقرية نويانت. واني وان كنت عاجزاً عن عمل الخير كله فقد عملت ما بوسعي دفعاً لشر من سبقني. فلا البخل بالمهلة على الفقراء والمعسرين والرفق بالمنكوبين وانبه الاغنياء الى جورهم وقلة رحمتهم

قال المركيز: انك لعمري فتى شهم كريم الخلق ويا ليت كل

المأمورين مثلك

— لكني احياناً لا استطيع امهال بعض المديونين ولهذا فانك تراني ههنا اليوم

— نعم انني الى الان لم ادفع تكاليفي الاميرية

— لقد صار اخطارك مرتين وبعد المرة الثالثة يصير بيع العقار وهاك الان الاخطار الثالث الذي الزمني رئيسي بابلاغك اياه

— ليس بوسعي ان ادفع

— لقد قررت ذلك وسألت رئيسي اعطاءك مهلة فرفضها مرغماً لان المأمور الاكبر يطالبهُ بتحصيل البواقي. وهكذا فان الاعلى يدفع الادنى ويشدد عليهِ في امر التحصيل بحيث اصبح التسويف غير ممكن لان الخزينة كالرحى تسحق كلما يقع في طريقها

— فماذا يحل بنا اذاً

— بالاسف اقول ان الليزارديار يباع بامر الحكومة امام الهيئة المعينة لمثل هذا في بوجه اكبر مدن هذه المقاطعة

— ولكني اجعلهُ قبل ذلك طعمة للنار

— لن تستطيع ذلك لان القصر مرهون تحت يد الحكومة وعملك هذا يعد تعدياً عليها لانها تعد نفسها كاحد الدائنين وتسعى اولاً بتحصيل مالها

فحنى المركيز رأسه وقال: لقد نطقت بالصواب وافحمتني

قال المأمور: ولكن هنالك باباً للامل بعد. وذلك ان فتاة خائطة عرفتها في نويانت اسمها مادلين انوي الاقتران بها بعد ان يجتمع لدي شيء من المال. ولهذا فانني وفرت مبلغاً حسناً واخاف ان يحملني الطيش ونزق الشباب على اضاعتهِ. فهل لك ان تقبل مني القيمة وقدرها ثلاثمائة فرنك تفي بها ما عليك وتردها لي بعد سنة او سنتين مع فائدتها والمنة في ذلك لك لا لي

فتأثر المركيز لهذا الكلام وقال: انك كريم النفس طيب الارومة يا فرنسيس. على انني لا استطيع قبول تقدمتك هذه اذ لربما لم يتيسر لي ارجاع هذه القيمة اليك

فالح عليه فرنسيس فلم يرضَ بل سأله اي متى تعين بيع الليزارديار فقال المأمور: بعد ستة ايام في مدينة بوجه

ثم ودع المركيز واعاد عليه القول بان يفكر في ما عرضه عليه لعله يقرر شيئاً جديداً

فاجابه: ان كل شيء تقرر فلا سبيل الى الرجوع عنه وانني اشكر لك من صميم الفؤاد ما ابديت من اللطف والمعروف

ثم صافحه متأثراً مما رآه من كرم نفسه. فادار المأمور وجهه اخفاء لتأثره وعاد المركيز الى منزله. وما زال فرنسيس يفكر طول الطريق في كيف ينقذ صديقه المركيز من العسر الذي وقع فيه

٥

الكونتة ده شازه

ان جان بعد انصراف المأمور وجه خطواته الى معبد القصر فدخله وترك الباب مفتوحاً وقصد ضريح والديه فجثا فوقه زماناً يصلي. ثم نهض من مكانه بهدوء مخافة ازعاج الراقدين في التراب. وجلس على مقعد من خشب السنديان كثيراً ما كانت والدته تجلس عليه الساعات الطوال في الصلوة والاتحاد مع الله والعذراء القديسة. وكان هنالك كتاب صلاتها وعلى جلده الثمين شعار الاسرة وهناك ايضاً كتاب « الاقتداء بالمسيح » الذي كانت تطالعه يومياً

فتناول جان هذا الكتاب العجيب واخذ يتصفحه وما لبث ان غاب عن حواسه وحمله الفكر الى المنازل السموية فنسي اتعاب الارض ومشاقها وتبين له حقارة الدنيا وما فيها مما يؤثر فينا خسرانها ولكن ننقطع عن اعتبارها اذا تدرعنا بالدرع المنيع المعد لتابعي يسوع الصالحين الامناء

وما زال الركيز غارقاً في التأمل مدة ساعتين حتى دخلت عليه امرأة جميلة الصورة سمراء اللون تناهز الاربعين لها عينان تنبعث منهما انوار الصلاح والطهارة . وبعد ان صلت قليلاً امام

الهيكل دنت من جـان فانحنت على كتفه بلطف وقالت: هلم فاتبعني يا ابن الخال

فرفع جـان بصره اليها وقام وتبعها الى الطبقـة العليا وهناك قالت لهُ: اجلس يا ابن خالي واصغ سمعاً اليّ ولا تقطع كلامي:

ان فرنسيس مأمور نويانت كان منذ قليل في مرسيلي واخبرنا انا وزوجي بكل ما جرى وقد قررنا شيئاً جئت اعرضه عليك

وقبل ذلك لنعد قليلًا الى الماضي

انني لما اقترنت بالكونت ده شازه كنت انت بعد طفلًا وقد تعلقت فيك لما رأيته من نجابتك وميلك الى الخير وعنيت بتهذيبك وعلمتك الخط والرسم والحساب . غير انك كنت مع ما فيك من الصلاح والذكاء كثير التخيل شديد الذهول ولذلك كثيرًا ما كنت اونبك واقاصك على هذا بقطعي عنك الفاكهة بعد الطعام. فكنت تقول لي دائمًا بغضب: انك ابنة عمة مبغضة فهذه ابنة العمة المبغضة اتت اليوم تونبك لان العيشة التي تعيشها لا تليق برجل همام مقدام. وانني لا اجهل تعلقك الشديد بالامور الماضية والاشياء القديمة ولا احجم عن مشاطرتك احزانك اذ اعرف مرارة ما يحيط بك من التذكارات. غير انني الومك على عجزك وعدم اعتمادك على ذاتك. ولما سألتك انا والكونت ان تختار لنفسك صنعة من الصنائع اجبت جواب غيظ واحتقار. واذ عرضنا عليك مساعدتنا جرحتنا بكبرك

وتشامخك . ولسنا نحفظ لك في قلوبنا حقداً اذ لا يجدر الحقد لمثلك . لكننا صبرنا الى ان حان الوقت المناسب الذي نتوقعه ولا فضل لنا فيما نفعل لاننا انسباء

ان فيك خصلتين هما الكبرياء والكسل . الا ان لهما دواء يصلحهما وهو العمل . . . ها قد عبست كالعادة وتكاد تقول لي العبارة السابقة : انتِ ابنة عمة مبغضة

فتبسم جان قائلاً : لا يا ابنة عمتي

— حسناً . ان ابنة عمتك تأمرك بان تفعل ما تقوله لك

ان الليزرديار سوف يصير بيعه بعد خمسة ايام وسيكون ثمنه ثلاثماية فرنك قيمة دين الحكومة والزيادة لا تكون اكثر من خمسة عشر الف فرنك . وان ثروتنا وان كانت عقارات فللكونت بعض النقود يشتري بها القصر ولا اظن احداً يزيد عليه لما له من المحبة والاعتبار في هذه الناحية . فيبقى الصرح في يده ريثما تتمكن انت من تحصيل ما يكفي لاسترجاعه

— ومن اين لي تحصيل هذا المبلغ

— انك رسام والكونت يريد تزيين غرفة السلاح وغرفة الطعام وقاعة الاستقبال ببعض النقوش والرسوم . فتذهب الى مرسيلي وتقيم هناك مع بيرارد وكاوديون قريباً منا في القصر الصغير وتشتغل باصلاح بيتنا القديم حتى اذا انتهيت يقدر العمل بمعرفة

ذوي الخبرة وبذلك تبقى على كرامتك ومقامك

— وهل تريدون نقش الجدران

— اننا نريد دهنها على طريقة الرسم المعروف. هذا وان القيمة التي تحصل من بيع الليزارديار لا يفقد منها شيء كبير لان مطلوب الحكومة زهيد وزد على القيمة اجرة الرسم حتى يجتمع لديك ثروة معتبرة. واذا عملت بنصيحتي وانهيت دروسك وعنيت بتحسين موهبتك بان تقصد باريس وتدرس على كوروت المصور الشهير فلا يمضي عليك زمن طويل حتى تمهر في هذا الفن وتباع رسومك باثمان باهظة فتصبح غنياً وتتمكن من العود الى الليزارديار الذي يصونه لك نسيبك الكونت. فترممه وتزينه وتتخذ لك فتاة حسناء كالتي اجاد في وصفها الشاعر ولترسكوت تكون اهلاً لسيد هذا الخادم الامين بيرارد

— اه انك ابنة عمة مبغضة ولكن يجب ان آخذ العزة معي

— ان ذلك لا بد منه. ومادلين (ابنتها) تربط في عنقها شريطاً ملوناً. على انك لم تسألني عن مادلين

— انك لم تتركي لي مجالاً للسؤال عن احد

— حسناً فهل تذهب الان ؟

— الان الان ؟

— نعم قبل ان تتغير افكارك فقط ارجو منك ان تغير ثيابك

وتلبس اليق منها والا فان من يزورنا يظن بان في بيتنا « روبنصن كروزي »

فاكمد وجه الشاب وقال « لا يجمل بك ان تسخري بي الى هذا الحد »

- لقد اصبت فاصفح عن مداعبتي التي صارت في ملكة ولكنك لا تجهل اخلاصي وشدة حبي والان فانني اتركك لاكلم بيرارد ربما تغير اثوابك . وخرجت وهي تضحك ضحكاً شديداً

وبعد قليل نزل جان فوجد الكونتة تتحدث مع بيرارد فقالت له : هذا ما قررناه. في هذا المساء يذهب بيرارد بالعنزة ويعد مكانه في القصر الصغير فيكون خادماً لك هناك كما كان هنا ويأتي كل يوم الى الليزارديار اذا علم بانك ترغب تجديد الزهور على ضريح والدتك التي كنت احبها وبذلك تكون كأنك موجود بقربها

- ما اكثر لطفك يا ابنة عمتي

- لا تمزح والا عدت الى مداعبتي فهلم بنا الى العربة التي تركتها خارج الدار. واين كلوديون. آه هو هنا

واخذت تضربه على رأسهِ بلطف فاستأنس بها ووقف على رجليه ووضع يديه على كتفيها فافلتت منهُ وقالت ضاحكة : وهنا بربري يجب ان يتمدن

وما كان غير قليل حتى سارت العربة تحمل الكونتة كرستيانا والمركيز جان وكلوديون يركض وراء العربة التي سارت بها الخيل تنهب الارض والشمس ترشقها بسهام اشعتها الذهبية

٦

الكونت دِه شازه

كانت الساعة الخامسة وكانت قرية مرسيلي ووادِيها الجميل كأنهما يهجعان تحت سرادق من انوار شمس الربيع المائلة الى المغيب والدخان يتصاعد من مداخن المنازل ثم يتجمع حول قبة الكنيسة البديعة كأنه دخان مبخرة وقد ساد السكون والسلام وفاحت روائح القداسة في ذلك المكان

واذا بصراخ عالا من وسط ذلك السكون يقول : بليمو بليمو. يا ولد يا ولد : فهب اهل القرية من بيوتهم مذعورين نساء واطفال وشيوخ كان الصواعق وقعت عليهم واطلوا من بيوتهم يستطلعون الخبر وما لبثوا ان قالوا : هو الكونت دِه شازه . لانه ما كاد يمر نصف ساعة على غياب الكونتة حتى عيل صبر الكونت مع معرفته ان المسافة من منزله الى الليزارديار تستغرق ساعتين ذهاباً واياباً على الاقل لكنه كان قليل الصبر لا همّ له الا العمل يريد انجاز كل شيء سريعاً

وقد جعل مقامه على سلم القصر فانتصب بهيئته العسكرية وشريط وسام جوقة الشرف يلمع فوق ردائه المخملي وكان يتلفت الى منعرج الوادي والى مروج المولن الخضراء. تارة يلهو بشاربه وطوراً يرفع قبعته ويسرح شعر رأسه ويقول : اني على يقين بنجاح كريستيانه. واذا لم تنجح وخابت مساعيها فماذا يكون بعد ذلك يا ترى

وبانت في وجهه دلائل القلق والضجر وعاد يفكر في الامر وكان انه بينما هو يفكر رفع صوته وقال : بليمو بليمو يا ولد يا ولد !

وبليمو هذا كان فتى لا يتجاوز الخمسة عشر ربيعاً تساق سور حقل الكونت زرع بطاطا يبعد نحو ثلاثمائة متر وظنّ ان الاشجار المشتبكة تحجبه عن الابصار فاخذ يملأ عدله من البطاطا ما يذخره للشتاء. لكن الكونت الذي كانت عيناه كعيني الفهد وصوته كصوت الاسد لمحه للحال وصاح به : مكانك ! فبغت الفتى ووقف لا يتحرك فاشار اليه الكونت بالدنو منه واذ صار قريباً من القصر قال له : اهكذا تفعل يا ولد تستغل حقل غيرك. انك تسرق لتطعم والدتك وشقيقتك وكان من الواجب ان تطلب مني وانا اعطيك والان فاملأ عدلك ولا تعد الى مثلها دون اذني

وما صدق الفتى ان اطلق الكونت سراحه حتى عاد فملأ

كيسه وذهب وهو يقسم بان لا يعود الى مثل ما فعل

اما الكونت فعاد الى تأملاته وكان ينظر الى الساعة ويضرب السلم برجليه واخذ يقول في نفسه:

قد لا يرضى بالحضور معها لان هؤلاء الليزارديين متكبرون كابرًا عن كابر ولا لوم عليهم بذلك. غير ان الكبر يجب ان يصحبه الغنى. وعندي ان الفقر لا عيب فيه ولا ذنب ولو كان جان العنيد رافقني الى الجزائر لكان الان برتبة قائمقام في فرقتي لكنه آلى على نفسه ان لا يحارب الا مع الملك ولسوء الحظ لا اقدر وحدي ان ارجع الملك. قد انتظرت ساعة ولم يحضروا ولكن ها اني اسمع صوت العربة فهل جان مع كرستيانه

ثم نادى ابنته مادلين فخرجت وكانت في العاشرة من عمرها. لها شعر اسود لامع كشعر الكونتة وعينان زرقاوان كعيني الكونت. رزينة طلقة المحيا في يدها لعبة كانت تفتخر بحملها. فقال لها الكونت: اصغي لما اقول يا ابنتي. ان ابن خالك جان آتٍ الان ليقيم معنا وقد مضى عليه زمن طويل لم يأتِ مرسيلي فعليك ان تكوني لطيفة نحوه واذا رأيته حزيناً فابذلي الجهد في تسليته واياك ان تقولي له ان ثوبك لا يناسبك كما قلت امس للمسيو راعول فان الامر هين مع راعول الغني صعب مع جان الفقير. افهمت ما قلت لك؟

— نعم ساقول له : ثوبك ظريف جداً

— لا تقولي لا هذا ولا ذاك بل ينبغي ان تخاطبيه بمحبة كما تفعل امك خلافاً لما افعلهُ انا لانني اذا لاطفتهُ استاء وعد ملاطفتي له لسبب فقره

— لا يا ابي . فاخذ الكونت بيد ابنته وتقدما الى العربة التي صارت على مقربة من الدار واذ ذاك قال : هـا قد اتيتما ولقد خشيت ان تكون انكسرت بكما العربة على الطريق فهـل تحسبانني ملاك الصبر . ترجل يا جان والان يمكنك ان تقبل مادلين ان شئت

وتقدمت الابنة الى جان بادب ثم ضحكت واخذت تمسك شاربيه وهي تقول : ما احسن شاربيك يا ابن الخال »

قال الكونت : والان خذ يد مادلين يا جان وهلم بنا الى المائدة لان الانتظار اكسبني شهوة الذئب

فدخلوا جميعاً وجلسوا الى مائدة انيقـة ساد فيها السكوت اولاً وكان جـان يحاول اخفاء غمه والكونتـة تبتسم وهي تفكر ومادلين تسترق النظر الى المركيز

اما الكونت فكان همه مصروفاً الى اعطاء الاوامر باحضار الوان الطعام وترتيبها على المائدة ومـا كاد ينتهي من ذلك حتى التفت الى جان وقال : اعندك اخبار من شقيقتك

— نعم ايها النسيب . لا تزال في المستشفى البحري بمدينة برست وقد اصيبت بالجدري مع راهبتين قضتا نحبهما

قال الكونت : وشقيقتك الباسلة لا تزال تواصل جهادها بين المخاطر فهي بالحقيقة فاضلة غيورة . فلنشرب نخبها كاساً من الماديرا

فلم يتمالك المركيز من الضحك

فانتهزت مادلين الفرصة وقالت : احب ان اكون من راهبات المحبة ليكون لي قبعة ذات اجنحة ترفرف فوق رأسي لكي ارضي العزيز جان . قالت هذا وركضت اليه واخذت تسحب شواربه

واخذوا يتجاذبون اطراف الحديث . فتناولت كرستيانه موضوع الرسم بمناسبة معرض مدينة متس وكان جان يعاكس اراء نسيبته لكنه غُلب في المناظرة فلم يتمالك الكونت المعجب بزوجته من ان يقول لجان : ها قد غلبت وكرستيانه اقوى منك

قالت كرستيانه : ربما فقته من بعض الوجوه لكن جان اذا اعتمد على نفسه واستحث همته نال قصب السبق في فن الرسم وكان فيه من المبرزين

قال الكونت : اذاً عليك يا سيدي ان ترسم لي اربعة رسوم كبيرة في غرفة السلاح . صيد الذئب وصيد الثعلب وصيد الغزال وصيد الدب . وسأبين لك كيف يجب ان تكون هذه الرسوم

قال جان : لقد اتفقنا على هذا كله ايها النسيب

— قد تذكرت الان كيف كان جدك المركيز كونترو يحصل معاشه مدة منفاه في مدينة نورمبرغ بوضع الرسوم الهزليـة وآل ايزارديار كلهم مصورون. والان فلنشرب كأساً من البركندِه المعتق على ذكر المركيز كونترو

وبعد العشاء قاموا الى القاعة وقد اخذ السرور من الكونت فجلس في كرسي هزاز وقال : ايها الصديق جان ارى نفسي الان كاني لورد من اصحاب الاقطاعات القدماء فعلى زوجتي وابنتي ان تقوما بخدمتي وانت ساجعلك خادمي ايضاً. يا كرستيانه اسكبي القهوة لعظمة مولاك وانت يا مادلين يمكنك ان تحوزي الشرف بتقديم السكر والبرندي المعتقة من القرون المتوسطة . ثم شرب فنجانه والتفت الى جان وقال : والان اتى دورك يا خادمي الامين اذهب وأتِ بذاك الكرسي وضعه تحت قدمي وكن شريفاً مخلصاً وتوقع حسن المكافأة فاني ساخدمك يوم عرسك

هذا كله من لطائف الكونت وفكاهاته التي لم يتركها كلما سنحت الفرصة. فبعد ان مد رجليه على الكرسي الذي وضعه جان واستعد للقيلولة قال : ايقظوني بعد نصف ساعة لمرافقة المركيز الى قصره. وتقدمت كرستيانه ومادلين الى البيانو. واذ احجمت الفتاة عن انشاد بعض الانغام وعدهـا جان بان يتحفها برسمها ورسم لعبتها فرضيت وشكرت كرستيانه لجان صنيعه وقالت مبتسمة :

لئن كان اولادي قد اساؤني اليوم قليلًا فان الامر يهون اذا اصلح بعضهم بعضاً

وانبسطت نفس المركيز عند ما نظرت كرستيانه ومادلين اليه نظرات الحب الاهلي واحس في قلبه بعواطف السرور التي يشعر بها الانسان عند ما يحب من يحبه

وافاق الكونت من نومه وصاح : الجزمة ايها الجندي البليد عيب عليكم ان تتركوني انام حتى الان قم بنا يا جان . هل ترافقينا يا كرستيانه الى القصر الصغير

— نعم ومادلين ايضاً لانني احب ان ارى اذا كان الخدم اجروا بحسب افادتي وكان كل ما يحتاج اليه جان موجوداً

وقاموا جميعاً فنزلوا السلم ووقفوا قليلًا يمتعون الاعين بمنظر تلك الليلة البهيجة

وكان القمر يسبح في ذلك الفضاء الازرق والى شمالهم اشجار الكستناء وقد القت ظلالها على الحقل الواسع والى يمينهم غابة من اشجار التفاح والخوخ والنجاص تتمارج رؤوسها في النسيم ويكللها القمر بتيجان من لجين انواره . وامامهم الممر الموصل الى القرية بين صفين من الاشجار الباسقة وقد صبغه القمر بلونه الفضي فكان له منظر بديع اما القصر الصغير فكان في اول القرية . وقد بسق منه برجان كأنهما شجرتان توأمان وزادتهما تلك الليلة

خسناً . فاخذ الكونت ذراع جان وسارا تتبعهما مادلين ووالدتها حتى وصلوا بعد قليل الى القصر

ولم يكن ذلك القصر صغيراً كما كانوا يدعونه فهو عبارة عن بناية فخيمة من ابنية القرون الوسطى له برجان مرتفعان في الجو وفي الطبقة السفلى غرفتان كبرى وصغرى فوقهما غرفتا نوم

فلما دخلوا وقف بيرارد والى جانبه كلوديون والعنزة . فاخذ الكلب يثب اظهاراً لسروره بمشاهدة سيده حتى ان العنزة اخذت تثغو ايذاناً بفرحها وقد وجدت كرستيانه بعد الفحص ان كل شيء مرتب في الغرف والمكتبة ملأى بالكتب النفيسة المختارة ومعظمها في فن الرسم . وكانت المفروشات مع بساطتها مناسبة وعلى الجملة فان كل شيء كان يدل على سلامة ذوق وترتيب مما حمل الكونتة على ان تبتسم اذ قابلت بين هذا وما في الليزارديار واعمل جان فكر في قصره فاكمد وجهه ولم يبتسم

ثم ان الكونتة صعدت وزوجها الى الطبقة العليا لتفقد غرف النوم وبقيت مادلين لتتعرف الى كلوديون والعنزة ورأت كرستيانه ان المكان لا ينقصه شيء مما يحتاجه منزل المصور والشاعر

ولما همَّ الكونت ومن معه بالانصراف وقف جان بالباب يحييهم تحية الوداع وقلبه مفعم محبة وعرفاناً وقال : ما اكرم نفوسكم ايها الانسباء وما اشد محبتكم

فاجابه الكونت : لا فضل لنا بما ابدينا لانك اهل لاكثر من هذا فضلاً عن ان مصوراً غيرك لا بد ان يتقاضاني مبلغاً كبيراً في مقابل هذه الرسوم اما انت فلست اوفي لك درهماً واحداً فوق ما تستحق . وارجو ان تشرع في العمل غداً والا استأت وانت تعرف استيائي . والان قبل مادلين ولا تنس صلواتك والرب الاله يباركك

ثم انصرفوا ودخل جان منزله الجديد ونام تلك الليلة مع ما لقيه من الحوادث في نهاره نوماً هادئاً

٧

— في العمل —

ما كادت تدق الساعة الثامنة من صباح الغد حتى كان جان يشتغل في قاعة القصر وقد كان ناجي النفس في ظلام الليل متوسلاً بحرارة الى مريم العذراء المجيدة لتستمد له الشجاعة والعزم ورأى ان ليس في العمل شيء من الدناءة بعد ما اظهره له الكونت من الكرم والاريحية والعمل على صون ميراث اجداده بل عدّ ذلك عملاً واجباً لا عيب فيه ولا عار

والذي كان يخافه هو ان الكونت اذا لم يشتر قصر الليزارديا

بيع بالمزاد العمومي واضمحل ذلك الصرح القديم وقسمت الاراضي بين الفلاحين لكنه بفضل الكونت نسيبه صار يؤمل ان يعود الى منزله وهو احسن حالًا من ذي قبل واقل اهتماماً بمستقبله. وكان كلما افاق من نومه فكر في هذا ورأى ان الواجب وعرفان الجميل يقضيان بتلبية طلب نسيبه. وما صدق ان طلع الصباح حتى شرع في العمل وقد وجد كل ما يحتاج اليه من القماش والالوان والاطر. وبعد ان تأمل قليلًا اخذ الفرشاة وبدأ يرسم صورة صيد الدب واذ كان يتلهب رغبة في انجاز العمل اشتغلت مخيلته حتى لم يشعر بدخول احد الى غرفته. ثم انتبه الى صوت يقول : جميل للغاية. اني مسرورة غاية السرور . وكانت كرستيانه قد دخلت ومعها مدلين التي تقدمت الى جان وجلست على ركبتيه وطوقت عنقه بذراعيها فقالت كرستيانه : قم بنا الان نذهب الى تناول الغداء فالكونت ليس هنا ليداعبك لانه ذهب الى الصيد ولا يعود حتى المساء.

ولم يكن غير قليل حتى انتهى الغداء فاشارت كرستيانه الى ابنتها ففهمت اشارتها وخرجت وعادت بعد هنيهة وفي يدها علبة مكتوب عليها اسم جان مخرماً بالابرة فقالت الكونتة : هـذا باكورة شغل يـد مادلين تقدمه لك بسرور عظيم وضمنه بعض لفافات من التبغ فالمصورون يرتاحون الى التدخين لان عبير التبغ

يطرد رائحة الدهان والزيت. والان انا ذاهبة وماديلين لزيارة بعض الفقراء فادعُ لنا

واسرع جان فتح العلبة حالاً حرصاً على الوقت فوجد اللفافات في غاية الجودة وعاد الى عمله برغبة ونشاط حتى انه لما قرع الجرس علامة تبشير الملاك للعذراء في برج الكنيسة كان هو لم يزل منهمكاً بالفرشاة والالوان. وما انتهى من تلاوة السلام الملائكي حتى سمع صوت وقع اقدام فالتفت وما كاد يفتح الباب حتى اصفر لونه ثم اصطبغ بحمرة الورد اذ شاهد اسرة ديزورم ومعهم الكونت والكونتة التي قالت : عفواً ايها العزيز انني سهوت عن اعلامك بان المسيو ديزورم وولده الانسة ريمونده يتناولون طعام العشاء معنا وقد زاد سرورنا بحضور المسيو لكراند

وقال الكونت : اسمح لي يا مسيو ديزورم ان اعرفك بنسيبي المركيز دي ليزارديار

— لقد حظيت بمقابلة المركيز قبل الان

قال هذا وصافح جان الذي وقف صامتاً وقد دهش لهذا الاجتماع

ثم قال الكونت: ان نسيبنا المركيز قد ادى لنا خدمة تذكر فتشكر اذ رضي بعد الرجاء الكثير بان يرسم لنا اربعة او خمسة رسوم لهذه القاعة التي كانت مهجورة منذ ايام الثورة. وقد

احببت ان تتعرّفوا اليه في مكان عمله الشريف

فتأثر جان من هذا الايضاح اللطيف لان الكونت لم يكن ذلك العسكري الخشن كما رأيناه امس بل كان لابساً اخر زي وكل حركة من حركاته تدل على الرقة واللطف. اما المأدبة فكانت انيقة فاخرة وقد تعرف اعضاء الاسرتين بعضهم الى بعض من زمن غير بعيد ودعي الكونت والكونتة الى قصر آل ديزورم في بروبار الذين دعوا اليوم الى قصر الكونت قياماً بالواجبات المألوفة بين الجيران. ولذلك كان في زيارتهم الرسمية شيء من الكلفة والبرودة وبعد سكوت قصير جرى الحديث عن الزراعة وكان المسيو ديزورم من رجال الزراعة المشهورين نال جوائز شرف في كثير من المعارض الزراعية وكان من القائلين بوجوب ادخال الاصلاحات الجديدة

اما ده شازه فكان معارضاً لهذه الاصلاحات لما في ادخال الالات الحديثة من الحرمان وقطع موارد الرزق عن كثير من العملة الفقراء. ولم تترك الكونتة مجالاً للمسيو فردريك لكراند ليبقى صامتاً ففاتحته بامر الاسفار لعلمها بانه رحّالة ألّف كتاباً في عجائب البر والبحر فتكلم واجاد حتى اعجب الحضور بتفاصيله عن اخلاق البشر وغيرها

ولم يمضِ على داعول ومدلين زمن طويل حتى اصبحا صديقين

فقصّ عليها حوادثه المدرسية وقصت عليه قصص اللعب التي ولعت بها . وكان جان جالساً الى جانب ريموندة لا ينطق بكلمة ورأى مع ما في نفسه من التذكارات المؤلمة ان ليس من الادب بقاؤه صامتاً . ولم يجد مجالاً للكلام فارتبك اما ريموندة فلم يبد عليها شيء من هذا بل كان الجمال يتجلى في وجهها باجلى مظاهره . وقد انقلب ذلك العجب والخيلاء يوم اجتمع بها جان لاول مرة رزانة ولطفاً فكانت لابسة ثوباً بسيطاً ابيض وقد عقدت شعرها الاسيل وردة جميلة بشريطة زرقاء من الحرير . وكان ظلال اجفانها يبرد حرارة خديها الوهاجة وعنقها كأنه عرش قام عليه راس تلك دالغادة الحسنا

ثم التفتت بغتة الى جان وقالت : هل لك ان تخبرني كيف حال كلوديون لانني احببته كثيراً واخشى ان يكون حانقاً عليّ فقد فزعت منه كما اخبرتك

— انني وبختُه يا سيدتي على تصرفه توبيخاً عنيفاً فضلاً عن توبيخ ضميره

— لست اعتقد لا بتوبيخك ولا بتوبيخ ضميره لانك تحبه حباً شديداً على ما يظهر ولا ريب في ان سيكون له المقام الاول في الصورة التي ترسمها

— اني اعد ذلك اطراء منك ايتها السيدة

— لا احب الاطراء ولم اتعوده حتى ولا اخالك تحبه

— ان ذلك فيك فضيلة واما فيَّ فانهُ نقص

— النقص يزول مع الايام ايها المركيز على اني جاهرت بلا اطراء ولا مداهنة بان الجرأة والبسالة ظاهرة كل الظهور في الرسوم كأن لها جسوماً حية

فحنى جان رأسه شاكرًا وما زال على تحفظه. غير ان الاثنين تجاذبا اطراف الحديث وزالت من بينهما بعض الصعوبة وتناولت ريموندة موضوع الرسم فاجادت كل الاجادة مما دل على علم راسخ. فتنبهت روح الفن في جان وخاض بحر الموضوع حتى لم يترك مجالاً للقول فبين ما كان عليه من سعة المعارف وعلو المدارك والخبرة في فن الانتقاد. ومهما يكن من الامر فان حديثهما نبه خاطر المسيو لكراند واصبح كله آذاناً صاغية. فنظر الى جان وريموندة شزرًا. لماذا؟ لا احد يدري. ولم ينتبه اليه المركيز ولا ريموندة اللذين واصلا الحديث باخلاص وولاء حتى بدت من الفتاة هفوة كبيرة وذلك ان الحديث جرهما الى عيشة الاعصر المتوسطة فقالت ريموندة: هذا ما كنت افعله لو سمحت لي بقصر الليزارديار

فاجفل المركيز واجاب جواب مصرّ: هذا لا يمكن ابدًا

وساد السكوت بينهما مرة اخرى وسببه ما كان يجول في

الصدور من الاستياء والغيظ. وقال جان في نفسه هذا هو سبب ملاطفتها والغرض الذي ترمي اليه

وانتبهت ريموندة الى هفوتها فاخذتها الحيرة والاضطراب ولو لم يشتغل جان ببعض الشؤون لسمعها تقول بين صرير اسنانها غيظاً وحنقاً: لا بد لي من اخذ الليزارديار مهما كان دونه من المصاعب

وعلى الجملة فقد كان مركزهما حرجاً. وما صدقا ان انتهت المأدبة حتى قدم جان ذراعه لريموندة ولم ينطقا بكلمة. وافترقا ولم يجتمعا حتى ساعة الوداع. وقد قدم المسيو ديزورم عذره لاضطراره الى الانصراف بسرعة اذ كانت المسافة بين مرسيلي وبرويار غير قصيرة وتفرق الجماعة كما اجتمعوا على ولاء ووداد وان كانت احاديثهم لا تخلو من برودة

وقد اثنى الكونت على ضيوفه ووقف هنيهة يفكر في اويقات السرور وما لبث ان هب بغتة من غفلته وقال: لقد سهوت عن الذهاب الى بوجه فغداً يصير بيع الليزارديار لان فرنسيس المأمور ارسل يخبرني بهذا والاحسن ان اذهب وحدي يا جان لان وجودك هناك يسبب لك غماً واظن ان ليس من صعوبة في الامر اذ لا يقدم غيري على دفع عشرة الاف فرنك ثمن القصر وسوف اوصل الثمن الى خمسة عشر الفاً كيفما كان الامر

قال جان: هذا اذا لم يتدخل آل ديزورم الذين يطمحون الى القصر

- اظن ان المسيو ديزورم لا يبلغ به الامر الى حد ان يعمل عملاً يسربله العار

- الك الشكر ايها النسيب على ما اوليتني من الجميل فعسى ان تتوفق باذن الله

- دع الشكر الان انني سأصل متأخراً عن الاجل المضروب للبيع الذي يكون غداً الظهر والمسافة من هنا الى بوجه تبلغ عشرين ميلاً

قالت كرستيانة: سافر من هنا الساعة السابعة

- ومع ذلك فلن اصل الا الساعة العاشرة وينبغي لي ان اقضي مدة لاتناول طعام الفطور هذا اذا لم يطرأ ما يؤخرنا عن البلوغ في الوقت المعين كأن تتعطل الة في العربية او يجفل الحصان وذلك يكثر وقوعه واخاف ان لا يغمض لي جفن هذه الليلة. لكن لا بأس. هات يدك يا جان. استودعك الله واسأله ان يباركك

ومع خوف الكونت من الارق نام كطفل الى طلوع الفجر. فافاق واخذ يهز كل من يجده في طريقه من الخدم والخيل والكلاب ليوقظه لانه متى كان هائجاً وجب ان تكون الدنيا كلها مثله

٨

— البيع —

بينما كانت كرستيانه مارة بالقاعة في اليوم التالي شاهدت جان حزيناً لا ينشط الى عمله بخلاف ما كان عليه قبلاً. وبديهي ان بيع الليزارديار اشغل خاطره واقلق باله ولم يكن الكونت الى جانبه ليجدد فيه العزم والنشاط بفكاهاته ومداعباته الودية. ورأت كرستيانة من واجباتها ان تزيل عن قلبه تلك الكآبة. وكانت هذه المرأة الفاضلة مثال الحنو يؤثر فيها مشهد احزان الغير كأنها قد نزلت بها فارادت ان تستعير صفحة من كتاب زوجها وتسلي جان باسلوب هزلي يوهم التساوة والبغض فاخذت تداعبه بما ناسب المقام وترشده الى ما يهذب اخلاقه وتبين له كيف يكون تصرفه مع الناس لانه كان قد صرف معظم ايامه في الوحدة والانفراد

وفيما كان جان يرسم صورة الدب نظرت اليه قائلة:

لست مسرورة اليوم يا جان منك ولا راضية عن شغلك لاني ارى هذه السنديانة كأنها شجرة دراق مما يدل على ان الرسام لا جلد له ولا صبر. فاترك الان فرشاتك والواحك وقم بنا نذهب الى النزهة في الغابة القريبة وهناك ترى كيف يكون السنديان

الحقيقي لعلهُ ينبه مخيلتك غدًا فتصلح الفاسد وتسد الخلل

قال: لقد اصبت ايتها العزيزة لانني لم اعمل ما يستحق الاعتبار اليوم

ثم ساروا وكانت مادلين تلعب راكضة امامهما وخافهما حتى اذا بلغوا منعطف الطريق ابصروا سنديانة كأنها جبار عظيم لا يقل عمرها عن قرنين وقد وقفت في وسط ذلك المرج وقفة البطل في ساحة القتال فقالت كرستيانة:

انظر يا جان الى هذه السنديانة فهي شريفة ومحاربة لانها لم تتفق مع ما حولها اذ لا نرى قربها من الشجر شيئاً البتة ولا ريب في انها اهلكت عشرات من الاشجار البرية التي جاءت في طريقها حتى انها اضرَّت بحقل الحنطة المجاور لها اذ مدَّت اليه جذورها كالافعى. واني اذم الشرف الذي ينتهي الى مثل هذه الغاية. على انني معجبة بهذه الشجرة لانها تجاهد فقد كسرت العواصف عشرة فروع من فروعها الغليظة وعطلت الصواعق عشرة اخرى ومع هذا فانها قد دافعت عن نفسها وعادت فنمت وعوضت عن كل غصن فقدته بغصنين فضلًا عما اكسبها ذلك من الاخضرار والنضارة فوق ما لها من كرامة السن وجلال القدر. لانها بالحقيقة محترمة ومكرمة. الامر الذي لا اراه فيك ايها النسيب العزيز ما دمت رجل شرف ولست رجل جهاد وعمل

وهنا ابتسمت وكان تحت ابتسامتها رزانة ووقار

فقال جان: بحقك قولي كيف انني رجل شرف ولست رجل جهاد وعمل

— انك رجل شرف لكونك متمسك بحسبك وماضي تقليداتك . لكنك لست رجل جهاد وعمل لكونك لا تعمل شيئاً تدافع به عن هذه التقليدات . فانت تبكي على غصون مائتة وكان الواجب ان تعوض عنها بغصون جديدة ولهذا فان السنديانة التي رسمتها في الصورة لم تعجبني . ومع هذا . . .»

فقطع جان كلامها وقال: ولكني ايتها العزيزة ما زلت حتى امس مطيعاً اوامرك ممتثلاً لاشارتك ساعياً في ان اكون رجل جهاد وعمل

— نعم اذا بقيت ناهجاً هذا النهج فلا يطول الامر حتى اراك كهذه الشجرة محترماً مكرماً في الخامسة والعشرين من سنيك كما لو كنت في الستين وهذا ختام عظتي

وكانت مادلين اذ ذاك ماسكة بيد جان فرفعت رأسها الصغير اللطيف وقالت: على مَ رأيتك امس تنظر الى ريموندة نظرة غضب

فخجل جان من كلامها

وقالت كرستيانه: تالله ما اشد انتباه اولاد هذا العصر ولقد انتبهت انا ايضاً الى ذلك كما انتبه لهُ غيري على الارجح فما سبب

حقدك على هذه الفتاة

— ليس هناك سبب مهم ايتها العزيزة انها رغبت الي في ان ابيعها الليزارديار فابيت واحت علي الحاحاً جعلني غير راضٍ عنها واحببت ان اظهر لها استيائي

— لا اظن ان ذنبها عظيم الى هذا الحد

— لربما . ولكن فيها شيء ساءني وارى من نفسي ما يحملني على بغضها والنفور منها

— لست مصيباً ايها العزيز . وربما الحت الانسة ريموندة اكثر من اللازم . الا انها فتاة فاضلة من بنات مريم وفي عينيها من الطهارة والصلاح قدر ما فيها من الملاحة والظرف ومما لا يختلف فيه اثنان ان الشاب لا يبغض فتاة جميلة كالانسة ريموندة

وسار الثلاثة حتى بلغوا القصر وقد مالت الشمس الى المغيب فالقت اشعتها الذهبية على تلك الروابي والاودية . وكان الكونت ده شازه واقفاً على درج القصر ولم يستقبل الوافدين بصوت الرعد كمألوف عادته بل تقدم الى جان بهدو وحياه باحترام وقال بلسان فصيح :

السلام على من كلله النصر وحف به التوفيق . هنئت ايها البارون روتشيلد

فقالت كرستيانه : وما تقصد بهذا الكلام

قال : اسمعوا فاحدثكم واحمدوا الله على ما جرى

انني بلغت بوجه هذا الصباح وقد دقت الساعة العاشرة فتناولت طعام الفطور في نزل جميل براحة وكانت الوان الطعام فاخرة للغاية : لحم مشوي وسمك من نهر اللوار . ثم انني بعد ذلك ذهبت الى الاب ريكاميه ذلك الشيخ الجليل فاعطيته مبلغاً من المال لبناء هيكل على اسم سيدة الحبل بلا دنس في كنيسته الجديدة . ومنها توجهت الى المحكمة حيث صارت المزايدة على قصر الليزارديار . وللحال بدأت المزايدة العلنية . واقل ثمن دفع اولاً قيمة مطلوب الحكومة . وكنت قد اتفقت مع المسيو ديبوا وكيل قصر ده لافاليار وكان معدوداً بين المحامين المشهورين فاخذ كل منا يزيد على الاخر حتى بلغت الزيادة خمسة عشر الف فرنك وهو المبلغ الذي كنت قد عينته

فاكمد وجه المركيز عند هذا الكلام واصطبغ بصفرة الموت وكانت عيناه شاخصتين الى الكونت الذي استطرد الكلام وقال :

ثم زاد ديبوا الى ستة عشر الفاً . فزدت انا الى الثمانية عشر وما زلنا نزيد حتى بلغت الزيادة واحد وعشرين الفاً . فتوقفت لارى ان كنت قادراً على دفع هذا المبلغ في الوقت الحاضر وكنت حزيناً من اجل جان الذي اصر على عدم بيع القصر وقلت في نفسي ان موكل ديبوا لا بد ان يفوز بالصرح القديم دون ريب . وقال القاضي : واحد وعشرون فهل من زيادة

وكان السكوت شاملاً الجميع كأن على رؤوسهم الطير . ومعما

تعلمونه فيَّ من ثبوت جاشي فقد كان قلبي ينبض في تلك الساعة نبضات سريعة. وبينما كان القاضي يهم باعطاء علامة ختام المزايدة اذا بصوت لطيف اجنبي اللهجة يقول: اثنان وعشرون. فالتفت الحاضرون فرأوا رجلًا انكليزياً وقف بين يدي القاضي يدل ثوبه على انه قسيس ابروتستاني من الفرقة المعروفة بالكنيسة العليا. فالمحامي ديبوا تقهقر قليلًا ثم عاد فقال: ثلاثة وعشرون. وتزايد الاثنان. وكان المحامي في اثناء المزايدة متحمساً اما القسيس فكان رزيناً هادئاً

ولما بلغت الزيادة الخمسين الف اوقف القاضي الزائدين وقال للانكليزي: قبل ان نتقدم في المزايدة تريد المحكمة الوقوف على اسمك وصناعتك. قال: انا وليم سميت قسيس ومربي انجال السيدة ريد المقيمة في النزل الملكي بمدينة ثور. فشكر له القاضي ذلك واشار الى الزائدين فاعادا الكرة حتى بلغت الزيادة مائة الف فرنك. فوقف القس عند هذا وجلس في مكانه. فصاح ديبوا مائة الف والف فلم يتحرك القس وكانت اعين الجميع شاخصة الى وجهه الجامد. وبعد هنيهة اعلن القاضي ختام المزايدة وان القصر بيع بمائة الف والف من الفرنكات

والتفت الكونت الى المركيز وقال: والان قد رايت يا جان كيف انك اصبحت من الاغنياء في مدة خمس عشرة دقيقة

قال جان: لا تطيب نفسي بذلك لانني فقدت الليزارديار

قالت كرستيانة: ذلك لعمري امر عجيب

قال جان وهو غارق في بحر الفكر: بل ذلك سر من الاسرار

قال الكونت: وان هناك مفتاحاً لهذا السر وهو انني بعد اتمام البيع سالت المحامي ديبوا عن اسم المشتري فاجابني من فوره: هو الانسة ريموندة ديزورم

فاصفر وجه المركيز وقال: هي هي اذاً. آه هذا الذي كنت اخشاه فهي الفائزة

قال الكونت: نعم يظهر ان الانسة ديزورم امرت المسيو ديبوا بان يشتري القصر مهما بلغ ثمنه وكانت تظن ان تشتريه باقل من ذلك. لكن السيدة ريد رغبت في القصر ايما رغبة فكان جان الرابح في حرب فرنسة واذكلترة. والان قل لي ما سبب استيائك اذ لم اسمع ان احداً يستاء لحصوله على سعادة كهذه

— لا يخفى عليك ايها النسيب انني اثمن هذا الصرح واعتبره كما اثمن واعتبر حياتي. فلو بقي تحت يدك لكان امانة وهان عليّ الامر اما وقد صار في يد الانسة ديزورم فهو بيع حقيقي لا مرد فيه ولا امل باستراجعه بوجه من الوجوه

— نعم ولكنك بمائة الف فرنك تشتري ارضاً وتبني فيها قصراً عظيماً تسميه الليزارديار

— ولكن لا يكون مثل هذا. والذي يسوئني فوز هذه الفتاة المفتخرة بغناها وقد توعدتني وفازت بما توعدت وصرت كانني اسير فضلها واشعر بخجل وخيبة لا حد لهما

— انك متكبر

— لربما ولكنني ارجوك ان تغير هذا الحديث لانه يؤلمني

ومع كل نوادر الكونت وملاطفة الكونتة والعاب مادلين المطربة بقي جان حزيناً لا يفوه بكلمة كل تلك السهرة ومضى الى سريره قبل الوقت الاعتيادي

وعند ذهابه قال الكونت لزوجته. اتستطيعين ان تفهمي اخلاق جان

فلم تجبه كرستيانة ولكنها قالت في نفسها نعم استطيع ان افهمها

٩

— كشف السر —

مضى على هذا يومان وجان لا يذكر شيئاً يتعلق بالقصر وبيعه مما جعل الكونت والكونتة يتعجبان. فلم يظهر عليه اثر الاستياء ولا نطق بكلمة قاسية البتة بل كان ساكناً مسروراً يعمل عمله بارتياح ونشاط. وكانت صورة صيد الدب على وشك

الانجاز ولم تعد ترى الكونتة خللاً في رسم شجرة السنديان مما سرت بهِ غاية السرور

وكان الكونت معجباً بصورة كلوديون البادية في الرسم وهو ممسك الدب باذنه وقد ظهر بمظهر وحشي يدل على البسالة والجرأة

واذا برقيم ورد من المحامي على الكونت يعلمه فيه ان ثمن الليزارديار يُدفع في الاسبوع المقبل ويرجو من المركيز جان ان يحضر الى مكتبه في ساعة عينها له حيث يقابل الانسة ديزورم ويوقع صك البيع حسب القوانين الشرعية

فتخوف الكونت وقرينته من عاقبة هذه المقابلة التي ربما جددت حزن جان. على ان المركيز كان على خلاف ما توهما راضياً تمام الرضى. فقد قابل الرقيم بوجه باش وطلب اليهما ان يرافقاه الى مكتب المحامي ليكونا شاهدين عليه. فقال الكونت في نفسه ها قد اخذت تبدو منه علائم التعقل وقالت كرستيانة اننا نذهب بطيبة خاطر

ولما حان الاجل المضروب ذهب جان والكونت والكونتة الى المكتب المذكور فوجدوا المسيو ديزورم وابنته وابنه في انتظارهم فقال المسيو ديزورم: لقد كان قدومنا باكراً لانني اضطررت الى ارسال مركبتي الى محطة سان باترن لاحضار المسيو لكراند العائد من تور في القطار وسوف يمر بنا: والان قد راجعنا الاوراق والصكوك ولم

يبق الا توقيعها

فاخذ جان القلم من يد ريموندة ووقع الاوراق بخط يده واعاد القلم اليها وحنى رأسه ولم يتكلم

على انه مـا كاد المسيو ديزورم يضع امام المعامي ورقة بنك بقيمة المائة الف فرنك ثمن القصر حتى قال المركيز بكل هدوء: ارجوك يا مسيو ديبوا ان تكتب صكاً اخر مضمونه انني اقدم لقرية شاتولافاليار تحت الامانة مائة الف فرنك لتنفق في بناء دير ومستشفى ويسمى المكان الليزارديار

فحدث بين الجمهور جلبة وضوضاء ولم يتمالك الكونت ان قال انه لمجنون

وهنا تقدم المسيو ديزورم وقال: يا سيدي المركيز اسمح لي بصفتي كبير السن ان اقدم لك نصيحة

فقطع المركيز كلامه وقال: انهـا تذهب سدىً يا سيدي فانني لم اتعود ان اقبل عطية بقيمة مائة الف فرنك لاجل شيء لا يساوي عشرة الاف

— الا ترضى على الاقل بقبول العشرة الالاف

— لا يا سيدي لانني اذا فعلت هـذا كنت موافقاً على بيع الليزارديار. فافضل وقف هـذه القيمة على الفقراء ولا غرو ان بلوغ الثمن هـذا الحد لم يكن الا اتفاقاً بطريقة لم اتمكن من

معرفتها فاذا انتفعت بهـذا الاتفاق كنت بحسب اعتقادي خائناً

فصاح به الكونت : خائناً ؟ او تظنني ادفعك الى فعل مـا هو خيانة

قال جان : لا ايهـا النسيب ولكن الرأي العام يتوهم انني قبلت نصيحتك في ذلك واظنـك تعذرني اذا خالفت رأيك في هذه المسئلة

فقالت الكونتة وقد كادت تشرق بريقها : ان جان مصيب يا عزيزي وما دام ضميره يرشده الى ذلك فلا ينبغي لنا ان نعارضه . والتفتت الى المحـامي وقالت : تكرم يا مسيو ديبوا واكتب صك الهبة

وكانت ريموندة في اثناء هذه المناقشة صامتة لا تنبس ببنت شفة . وقد وقفت على حدة وعلى وجهها علائم الحزن والدهش

وبعد كتابة الاوراق وتوقيعها أشار المسيو ديبوا الى ضيوفهِ كي يدخلوا غرفة الطعام تلبية لدعوة زوجته فقبلت ريموندة وكرستيانه الدعوة وفضل الباقون ان يدخنوا في البستان . وفيما كانوا جالسين في ظـل الاشجار مسرورين اذا بهم يسمعون صوت قدوم مركبة . وما كان غير القليل حتى دخل عليهم المسيو لكراند وما كاد بصره يقع على المركيز حتى ابتسم ابتسامة معنوية عدها جان احتقـاراً

له واهـانة . فسأله بلطف وثبوت جاش هل لك يا مسيو لكراند ان تقول لي اذا كنت اسأت اليك بوجـه من الوجوه حتى تنظر اليّ شزرًا وتبادئني بمثل هذه الاهانة

— لا بل بعكس الامر انني رايت منك مهـارة وذكاء ما كنت اتوقعهما . ولعمري ان تصرفك يدل على عقـل ثاقب ودهاء بعيد وان قصة ذلك القس على بساطتها لطيفة للغاية

قال جان : تكرم ايها المسيو بايضاح هذا الكلام

قال لكراند بتأنٍ كانه يضع كل كلمة في موضع خاص بها : هاك الايضاح . انني آتٍ الان من تور حيث قابلت السيدة ريد التي لها علاقة بمحلنا . فسالتها عن سبب ايعازها الى القس وليم سميث بزيادة ثمن الليزارديار المطروح للبيع . فاجابت انهـا لم تفعل ذلك وان القس المذكور كان ولم يزل في مدينـة نانت مع تلامذته . ففكرت ملياً في المسالة وتساءلت عن الرجل الذي لاجله رفع ثمن تلك الخربة الى هـذا الحد وتيقنت انه هو المالك بعينه الذي لمـا علم بان الانسة ديزورم اوعزت الى وكيلها كي يشتري القصر باي ثمن كان تواطأ مع القس الذي لا بد ان يكون نسيباً فادّى له هذه الخدمة الزهيدة . وهكذا يكون فعـل ذوي الدهاء يا سيدي المركيز

فما كاد لكراند ينتهي من هـذا الكلام الجارح حتى

اشتعل جان غضباً لكنه تمالك وقال بلهجة احتقار : انك اتهمتني يا مسيو بعمل دنئ لا يصدر الا من مثلك

فغضب المسيو لكراند وانقلبت سحنته عند ما اغلظ له جان القول واراد الهجوم عليه واذا بصوت يقول :

مكانك يا مسيو لكراند

وكانت ريموندة قد سبقت الكونتة فدخلت الجنينة وخاطبت لكراند بثبوت جاش . وقد كان الغيظ اخذ منها :

قلت انك يا مسيو لكراند صديق لاسرتنا وقد احوجتني ان اكشف امراً ما كنت اريد كشفه لولا ما رايته الان من سوء التفاهم الذي كاد يفضي الى الخصام وهو ان المركيز ليس هو الذي كلف وليم سميث لاجراء ما جرى بل انا وحدي بدون علم والدي الذي ارجو منه الان صفحاً

فاجابها والدها : ثقي يا ابنتي بانني صفحت

وهنا تقدم جان قليلاً وقال : اما انا فلا اصفح ايتها الانسة فقد رايت لاي عار عرضني عملك هذا

— ان المسيو لكراند قال ما قال قبل ان يعلم بسخائك النادر وانك وهبت الفقراء المال كله وعليه فالاهانة قد مُحيت تماماً

قال جان : من هذا الوجه نعم ولكن هناك اهانة اخرى

رشقتني بها وعار لا يمحى لم يزل سرًا في ضميري ولعلي مبالغ في الاستمساك بمبادئ العالم القديم مما يجعل الناس يضحكون. ومن هذه المبادئ احتقار الغنى مثلًا. ولعمري انك غير مصيبة في زعمك ان المال سيد مطلق يستولي على القلوب باسرها. واني اسألك باي حق بذلت كل الوسائط كي تشتري قصرًا لست ابيعه ولو بعشرة اضعاف ثمنه. ان فيّ من عزة النفس والاباء مثلما فيك ولا يبعد ان تقولي لي: ها قد جعلت ذلك المركيز السامي المقام معاشًا جزاء لطفه ودماثة اخلاقه

— لقد حكمت حكم من لم يختبر الامر اختبارًا تامًا

— اجاب جان وقد حاول الابتسام على الرغم منه:

اذن ارجوك صفحًا عن ذلك ولعمري ان عملك يحملني على التخلق باخلاق اهل السياسة. فهذه هي المرة الثانية التي تكلمت فيها بجدة ولن اعود الى مثلها فيما بعد. والان اطلب اليكِ ان تتكرمي وتساعدينا في انتقاء مركز للمستشفى الذي يختص بك كما يختص بي. والتفت الى المسيو لكراند واستطرد الكلام وقال: والمسيو لكراند مهندس بارع لا يبخل علينا برأيه السديد

فادرك المهندس ما يقصد جان من هذا التعريض فاجاب:

ذلك لا بد منه وعندي ان افضل مركز هو حدود الغاب في اطراف البلد

- حسن فهيا بنا الى هناك

وخرج الجميع من الجنينة وما زالوا سائرين حتى بلغوا فسحة من الارض خارج القرية معرضة لاشعة الشمس. فقال لكراند:

ليس احسن من هذا المكان لان نور الشمس يدخل غرف المرضى الذين يتمتعون بهواء الآجام ولا يصل اليهم ضباب الوادي

قال جان: بما انهُ قد تقرر ذلك فارجوك يامسيو ديبوا ان تجري المخابرات اللازمة مع وجهاء البلد ومعتمديها وغدًا نتفاوض في الامر ملياً بعد مفاوضة الاب ريكاميه. لان اول خطوة نخطوها في هذا السبيل انما هي نصب صليب مذهّب يُوضع ههنا بيديه الطاهرتين

وفيما كانوا عائدين تاخر جان قليلًا عن الجماعة مع لكراند حتى لم يعد يسمع حديثهما وقال جان:

يا مسيو لكران ها قد انتخبنا مركز المستشفى فاتم نعماك وتلطف بالحضور الى هذا المكان الذي نلتقي فيه غدًا

مع اربعة من اصحابنا واذا احضروا معهم سيفين كنا لهم من الشاكرين

— حسن ما قلت

— وبما ان هذا الحديث قد ابتدأ فلا بد له من نهاية

— كنت عازماً ان اسالك انهاءه في القريب العاجل

— ارى ان السيدات اشد رغبة في الوقوف على هذا الامر فارجو ان لا تذكره الا امام المسيو ديزورم والكونت ده شازه فقط

فاجابه الشاب بالايجاب وضربا موعد اللقاء الغد. ثم سارا حتى لحقا الجمهور. ولم يدر احد بما دار بينهما مع ما كان من تجنب احدهما الاخر. وكانت عربات اسرتي ديزورم وشازه في الانتظار عند سفح الاكمة وقد احاط بها جمهور من القرويين الذين لا عمل لهم ينظرون اليها وقد دهشوا لفخامة ما فيها. وبعد وداع قصير سار كل فريق في طريقه وكان المركيز يسلي رفاقه بحديث الدير والمستشفى واقامة شقيقته رئيسة عليهما

١٠

المبارزة

لما كان المساء دخل الكونت بعد العشاء الى مكتبته التي كان يدخن فيها احياناً فتبعه جان وافتتح الكونت الحديث فقال:

اذن تعين موعد الاجتماع الساعة التاسعة من صباح غد

— واعجبا اتعلم بالغيب

— او تظن ان قد خفيت عليّ محادثتكما الصغيرة

— وهل درت بذلك كرستيانة يا ترى

— كن مطمئن البال فلم احدثها بشيء من هذا

— يلزمني شاهد اخر

— سابعث من يجيء بغايتان ده كامبري فيكون شاهداً

قال هذا وكتب لساعته كلمة ثم طوى القرطاس وخرج فدعا خادماً وعاد. فرأى جان يدخن لفافة قدمتها له مدالين وهو ثابت الجاش

— سيكون البراز بالسيف

— نعم ولو كان بالمسدس لكنت على ثقة من الفوز

— ان الماركيز دون كيكسوت ده ايزارديار اختار السيف يوماً فهل لك خبرة باستعماله

— ليس كما يجب لانني من يوم وفاة والدي لم اطاعن احداً

— اخشى ان يفوز لكراند لانه مشهور بامتشاق الحسام فكن على حذر

— لا بأس

— وهو ايضاً شجاع لا يهاب الموت

— ولا بأس بهذا ايضاً

— ان فوزك متوقف على طعنة الجنب لا غير

— وما هي طعنة الجنب

فاشار الكونت اليه ان يحضر كتاباً عينه لهُ في المكتبة. فاتى به جان وقرأ هذا العنوان: سيد السلاح او اتم طريقة في امتشاق الحسام. قدمه ده ليانكور الى دوق بركاندي باريس وامستردام سنة ١٦٩٦

فتناول الكونت الكتاب واخذ يقلب صفحاته ويفحص ابوابه حتى انتهى الى باب طعنة الجنب فقال: كثيراً ما اجتهد ارباب هذا الفن في استنباط الطرق للضرب والطعن لكن طعنة الجنب تفضل على سائرها وهناك صورة تمثل هذه الطريقة باجلى بيان. فتأمل فيها واقرأ هذا الباب ثم اذهب الى سريرك مطمئن البال واني اوقظك غداً الساعة التاسعة. واسوف يعلم لكراند فضل طعنة الجنب

وكان الكونت ده شازه يتكلم ووجهه يطفح سروراً لانه كان مطبوعاً على حب الشرف ومع حبه لنسيبه فقد كان يضحك عند ما كان يفكر في سيفين يلوحان في الهواء ويذكر ايام الصبا

وعندنا ان البراز امر محرم في شرع الحكومتين الدينية والمدنية غير ان جان كان الدم يغلي في عروقه. فطلب مبارزة لكراند

الذي لم يسعه الا القبول واما الكونت فان ما طبع عليه من الحماسة وتعوده من المكافحة وخوض غمار الحرب جعله يتغافل عن واجباته المسيحية ويتساهل مع نسيبه بهذا العمل المستهجن

وفي الاجل المضروب كان المتبارزان والشهود في المكان المعين وكان الكونت قد احضر معه سيفين وهكذا فعل ديزورم. وكان الشاهد الثالث للمسيو لكراند ضابطاً في الخيالة وصديقاً لاسرة ديزورم والشاهد الثاني المركيز غايتان ده كبري ضابط في البحرية موصوف بالهدوء والسكون

فتقدم الشهود ووضعوا العلامات المطلوبة على الارض وكان من التوفيق ان يختار جان السلاح. فاختار السلاح الذي اتى به الكونت الذي ناولهُ السيف غير غافل عن تذكيره بطعنة الجنب

رمى المتقاتلان ردائيهما جانباً واديا التحية بالسيف واخذ كل منهما يتحن قوة الاخر ومقدرته ويظهر ما عنده من الحذق والحيلة فكان لكراند اكثر حذقاً وجان اشد بأساً. وعوض لكراند الذي كان جسيماً ما ينقصه من الرشاقة والخفة بثباته ورزانته فكان هادئاً لا يتقلقل. واذ مال برأسه الى الوراء وحنى ساعده المفتول وقف يتوقع ما يكون من خصمه

واما جان فلشدة مله ضرب ضربة مستقيمة دون تروٍ فمال قرنه عنها فراحت خائبة وبقي ساكناً وتوالى الطعن والضرب فكانا

خائبين. ثم دفع لكراند نفسه بغتةً الى الامام بسرعة وضرب فمس برأس سيفه منطقة جان. لكنه لاقى مصادمة غير منتظرة فعاد الى موقفه حذرًا

ولما احسّ جان بالضربة التفت بسرعة الى جيب صدرته فراى قطعة نقود تساوي خمسة فرنكات فاخذ الغضب فيه ورمى القطعة فقال لكراند ضاحكاً. ما احذقك في وضع النقود. فلا بد ان تصير صرّافاً ماهرًا

فقال الكونت: ان التكلم ممنوع بموجب القوانين. وكاد المركيز يتميز غيظاً لكنه تمالك ورجه سيفه بوخزةٍ الى انف خصمه فرفع هذا يده ليجعلها ترساً فاسرع جان كالبرق وطعن طعنة شديدة كانت طعنة الجنب فتقهقر لكراند الى الوراء وسحب جان سيفه وقد انكسر رأسه لكن لكراند لم يجرح بل قال: ما هذا كيف لم يُصب احد منا بجرح البتة ويظهر ان الطعنة اصابت ساعتي

فقال المركيز: لقد قلت لي انني ساكون صرافاً ماهرًا الانني احسن وضع النقود. اما انا فلا اقول لك انك ستكون ساعاتياً ماهرًا لانك تضع الساعات في المواضع الخطرة. فلم يتمالك المتبارزان والشهود عن الضحك

وهنا تقدم ديزورم الى الكونت وساله ان يضع حدًا للمبارزة

بقوله: انني لم احاول التوسط اولاً في منع القتال اما الان وقد اظهر كل من المركيز ده ليزارديار والمسيو لكراند ما يدل على شجاعتهما ونبلهما فلا بد من حسم النزاع ومصافحة احدهما الاخر وارى ان اغماد السيوف افضل من شهرها

فاستحسن الشهود ولكراند ذلك ودنا المهندس من جان ومدّ كفه قائلاً: لقد كنت الاول في الاهانة فينبغي ان اكون الاول في الترضية

ومن البديهي ان جان لم يتأخر عن مبادلة خصمه بالمثل لانه كان طيب القلب فيه صفات المسيحي الشريف فصافحه بكل ارتياح وبعد ذلك ودع الجميع بعضهم بعضاً وانصرفوا مسرورين بنتيجة ذلك البراز الذي كاد لولا لطفه تعالى يفضي الى قتل واحد من المتبارزين

ولما خلا الكونت بالمركيز في المركبة اخذ يقول له: نعمَ ما فعلت يا جان الم اخبرك بفائدة طعنة الجنب التي كانت فصل الخطاب

وواصلا السير حتى صارا على مقربة من مرسيلي فشاهدا كرستيانه ومدلين قد خرجا الى لقائهما وكان الاضطراب والخوف ظاهرين في وجه الكونتة مع انها رات نسيبها جان الى جانب زوجها فقالت: عسى ألّا تكون قد جرحت ايها العزيز

— كلاّ ايتها العزيزة

وقال لها الكونت : سوف نخبرك بكل شيء

فاجابت : يعلم الله مـا لاقيت من الخوف والقلق فالحمد لله على هذه النهاية

وقالت مادلين : اذن لهـذا السبب اشارت الي والدتي امس واليوم بالصلوة كي لا يصاب جان بأذىً . ثم سار الجميع مسرورين يحمدون الله حتى بلغوا القصر

١١

منزل المسيو ديزورم

كان منزل المسيو ديزورم في برديار من البنايات الفخيمة . ومع انه لم تراع في بنائه الاصول الهندسية قد كان جميلًا قوياً

وكان بعد حدوث مـا ذكرناه في الفصل السابق ان ريموندة جلست وحدها في مكتب ابيها مكبة على مطالعة كتاب كبـير امامها وقد ارتسمت على وجهها دلائل الانهماك وقلة الصبر فدخل والدها بغتةً واذ نظر الكتاب قال : ما الذي تفعلينه يا بنية

— اني افحص خارطة اركان الحرب يا والدي

— هل لك مقاصد بشأن الجندية

— لا قصد لي بذلك ولكني اسعى لعلي اعثر على طريق نصل به الى الليزارديار دون ان نمر بمرسيلي

— لا اظنك تجدين مطلوبك: وترين على الخارطة اثار طريق صغير يمكن المرور به على ظهور الخيل لا في مركبات فضلاً عن الصعوبة ايام الشتاء. لكن لمَ لا تسيرين في طريق مرسيلي

— اذا التقينا بده ليزارديار وعلم اين نذهب تذكر بيع قصره قهراً وساءه ذلك وكان في عملنا شيء من الشماتة والكبر

— لكن كان من اللازم ان تستدركي الامر قبل وقوعه اذ لم يكن شيء اهون من ترك ذلك القصر القديم لصاحبه

— اني محتاجة الى هذا القصر وسوف ابذل الجهد في ترميمه واعادة الكنيسة الصغيرة الى رونقها القديم وتشييد هيكل جديد فيها عليه تمثال فضي لمريم العذراء. ووضع انواع الزهور على ذلك الهيكل فيصير المعبد آية في الجمال

— لقد تساهلت معك ففعلت ما عنّ لخاطرك وحملتك عليه تصوراتك الغريبة كما انني لم اتعرض لك في غير ذلك. لان وفاة والدتك رحمها الله كانت السبب في ان لا امنع عنك شيئاً ولا ارى ما يدعو الى تغيير هذه الخطة ولست بنادم على ذلك. اما وقد بلغت اشدك فانت قادرة على التصرف بمالك كيفما شئت ولكني اقول لك ان هذه الاصلاحات تكلفك ما يزيد على المائة الف فرنك

ولا بأس بذلك فالشر الذي كنا نخافه زال بحمد الله وقد كاد يذهب بحياة رجل واحد ان لم نقل رجلين

— وما تعني بقولكَ هذا يا والدي العزيز

فأخذ يقص عليها حادث الصباح ولم يترك منه شيئاً حتى لم يهمل ذكر قطعة النقود والساعة وان النهاية كانت مرضية. وكانت الفتاة مصغية اليه ايما اصغاء حتى كان يبدو عليها شيء من التأثر الذي كانت تجهد النفس باخفائه. واضطرت الى التغلب على عواطفها عندما دخل المسيو لكراند فصافحته ولم تسأله شيئاً مما حدث

وبعد حديث قصير طلبت اليه ان يكتب الى مهندس في فن البناء ليعجل في الشروع باصلاح الليزارديار

وحان وقت الغداء فقدم لكراند ذراعه ليمونده فسارا وقالت لهُ ودلائل العظمة في مشيتها :

اهكذا كل شيء حسن ايها الساعاتي

فاجابها من فوره : نعم حسن للغاية. ولما كنت اعرف انصافك ودقة نظرك فارجو منك اذا اجتمعت بالمسيو ليزارديار ان تدعيه اذا شئت صرّافاً

— لا اني لست فاعلة شيئاً من هذا

١٢

شجاعة كلوديون

واوشك فصل الخريف ان ينتهي فلم يعد اهالي قرية مرسيلي يخرجون للنزهة المالوفة في الغابات وعلى التلال. وكان الكونت اذا رأى الجو صافياً يخرج الى الصيد وقد كان مولعاً به وبارعاً فيه وعنده فصيلة من كلاب الصيد فلم يكن يعود الا بزوج ارانب او ثعالب

ومع ما كان عليه جان من الولوع بالصيد لم يكن يرافق الكونت بل كان منهمكاً في العمل. فانجز تصوير الرسوم في القاعة الكبرى واخذ يصور لحسابه الخاص بجد ونشاط ولم يكن يأخذ لنفسه راحة. والذي كان يدعو كرستيانه الى الاعجاب بنسيبها لا نشاطه وجده فقط بل ايضاً ذكاؤه النادر وقريحته الوقادة وكانا من قبل مخبوئين كالنار في الحجارة فلا تظهر الا بالمعالجة والقدح فكان جان يرسم الصورة بعد الصورة حتى ملأ غرفة الطعام الكبرى التي تحولت مكتباً له

وكان المركيز يميل الى الطبيعة ومشاهدها ميلاً شديداً لان عيشة الانفراد التي عاشها انشأت فيه ميلاً عجيباً الى مناظر هذا الكون على اختلافها الامر الذي كان يبدو من خلال رسومه. وانَّ

كوخاً حقيراً مهدماً الى جانب بركة وقد انعكس على مائها المرتجف ظل اوراق الشجر او صخراً صبغته الشمس عند غروبها بحمرة الشفق او غابة كثيفة ذات ظل ممدود او قنطرة جسر رمى ظله على المياه الجارية على الحصباء كل ذلك يكون كافياً ليوحي الى عين صاحب الفن ما يدعوه الشاعر: نفس الطبيعة السامية

وكان ميله الى الحيوانات كميله الى الاشياء. فقد احب هذه المخلوقات حباً شديداً حتى انه كان اذا رفع بندقيته الى كتفه ليرمي بعض الارانب توقف قليلاً وقال: لا لست ارميها فهي جميلة. وكان احسن لهو يلهو به ان يدخل كرماً او يجلس عند سياج او تحت شجرة فيأخذ في مراقبة الطبيعة بصبر وسكون وقد استيقظ كل شيء حوله فمن دويبة تدب على ورق شجرة الى ارنبة توهمت ان لا يراها احد فسعت الى الاوراق الخضراء ومن ثعلب يجول طالباً على الارض شيئاً ياكله الى غزالة تسعى وحولها صغارها في طلب ظل الاشجار الظليل او طير باز على غصن يتوقع فرصة ينقض فيها على فريسته

فكان جان اذا رأى شيئاً من هذه الحيوانات امسك عن التنفس مخافة ان تذعر غير انها كانت تلمحه احياناً فتفر هاربة وقد تتلفت اليه قليلاً وهو يراقب فرارها وتلفتها. وكان يتكلم ليرى اذا كان صوت الانسان يخيف الحيوان دائماً وكان يتبادل

الحديث مع السنجاب وسائر الحيوانات التي لا تتيم طويلًا خارج وجارها . وعلى الجملة فقد كانت سياسته ناجحة لان الحيوانات ليست نافرة بريـة كما توهم وقـد عرف من ذلك كيف يميز الصديق من العدو

اما كرستيانه فكانت تراقب سير ابن خالها في هذا السبيل مسرورة بنجاحه الباهر سرورًا لا تخلق جدتـه وكثيرًا ما كانت تأتيه في وقت العمل فتجلس الى جانبه ومدلين على ركبتيها وتقضي الساعات الطوال في الكلام عن كل شيء عن ايام الحداثـة وعن الايام الاتية او عن نوادر عائلية قديمة مثل حديث جد جان وكيف كان يكسب رزقه ايام منفاه برسم الصور الهزلية وذكر جدتـه التي كانت تحصل على معاشها من شغل الابرة . وكان وجه كرستيانه يطفح سرورًا وبشرًا في اثناء هذه الاحاديث . وكانت تتخطى الى مواضيع اسمى واهم مثل الدين والفلسفة حتى السياسة وكان جان يسر بهذه الاحاديث كثيرًا لانه بذلك كان يستأنف دروسه العلمية التي لم يتمها في المدرسة

وكان لهذه السيدة الفاضلة معرفة تامـة في علم الحياة العلم الذي كان غـير معروف عند نسيبها جان ولهذا كانت تقنعهُ على التدريج بان الحياة العملية الحقيقية تختلف كل الاختلاف عن الحياة النظرية المكتوبـة في الكتب . حتى انها توصلت الى مكاشفتـه

بالاصلاحات التي اجرتهـا الانسة ريمونـده في الليزارديار دون ان يبدو منه شيء من الغيظ والغضب

على انه كان لم يزل في اعماق فؤاد الشاب شيء لم تستطـع الوصول اليه وهو سر خفي لمح اليه تلميحاً ولم يشأ التصريح بـه حتى لمن كانت مستودع اسراره. الامر الذي استاءت له كرستيانه قليلاً. غير انها لما كانت ذات صـبر وتأنٍ كما كانت ذات لطف ومقدرة عرفت كيف تنتظر

مضى على هذه العيشة الهنية شهران من الزمان واذا برقـيم ورد على الكونت ذات يوم من المسيو ديزورم هذه صورته:

عزيزي الكونت ده شازه

انني اخاطب اليوم جاراً فاضلاً بـل استاذ الصيـد في هذه البلاد. ان قطيعاً من الخنازير البرية خرج من غابة شينون وحل في غابة شاتولافاليـار. ان هذه الوحوش المؤذية اتلفت حقلاً برمتـه واضرت بما حوله من المزروعات. وقد حل هولاء الضيوف الثقلاء في اخربة فوجور يعيثون في ما حولهم. فبحقك عجل غير مأمور بالحضور الينـا لتزحف اليهم ونزدهم مدحورين. وبعـد ان فارقتك ذهبت والمسيو لكرانـد الخصم الحر للمسيو ايزارديار الى منزلي وهناك ودعنا وسافر الى هنغاريه حيث يقيم بضعـة اعوام مهندساً لخطوط السكك الحديديـة. تلطف بتقـديم احترامي وتحيـات ابنتي الى

الكونتة عقيلتك الفاضلة . ولي الشرف ان اكون صديقك المخلص

جامس ديزورم

قرأ الكونت هذا الرقيم وقال : لله ما اجمل هذه الفرصة لاننا منذ عشرة عوام لم نسمع بان خنزيرًا اتى هذه الناحيـة . ولعمري ان صيد هـذه الوحوش جدير بالنساء . فهل لـك ان ترافقني يا جان

قال جان : كلا ايها النسيب الا اذا كان لك رغبة شديدة . لان لدي صورة لا بد من انجازها .

— ليكن ما تريد يا ولدي وانني لست ادعو كرستيانـه الى مرافقتنا لانهـا ضعيفة القلب فضلًا عما يقتضي ذلك من العنـاء والنهوض باكرًا . والان فاستودعكم الله على امل ان لا اعود من القنص باقل من خنزير كبير

ثم اوعز الكونت الى خدمهِ بتجهيز معدات الصيـد وامرهم بالنهوض باكرًا وذهب جان الى غرفته في القصر الصغير

ولما كان الغـد استيقظ جان على صوت ابواق الصيد ونباح الكلاب عند مرور الصيادين في القريـة . ثم عاد فاستغرق في النوم بعد ان سكنت الضوضاء ولم ينتبه حتى ايقظه بيزارد الخادم وهو مضطرب فسأله عن سبب اضطرابه فاجاب : ان كلوديون قد تبع الكلاب السائرة الى الصيد وقد كنت ربطته عنـد مرورها ولما لم

ارَ منه حركة اطلقته بعد قليل فانطلق يعدو في اثر الكلاب وكنت كلما زدت صراخاً زاد عدواً فعميت عن ارجاعه

— ان كلوديون المسكين اذا التقى بالخنازير يرمي نفسه عليها فلا يرجع عنها حتى تعقر انيابها جنبه. فهيا بنا يا بيرارد نجهز بنادقنا ونتبع الصيادين. ولما كان الملتقى في فوجور فالاولى ان نختصر الطريق بقطع الغابة فنبلغ المكان في الوقت المعين قبل ان تعرض الخنازير نفوسها للهجوم الذي يقتضي اغراء كثيراً

ولم تمضِ خمس دقائق حتى كان جان وبيرارد يسيران من مرسيلي الى كوجيه فتوقلا الاكمة ومرا بطريق تحيط به المروج الخضراء والاراضي المزروعة التي تتخلل الغابات والاجام الكثيفة

وكان النهار بهيجاً طلعت غزالته في جو صافٍ. وقد هب النسيم البليل يحمل اليهما من جهة الجنوب الشرقي اصواتاً كانت تدنو منهما رويداً حتى تمكنا من تمييز نباح الكلاب من صوت الابواق فقال بيرارد:

ان الصيد متجه نحونا يا مولاي

فرفع كل منهما بندقيته الى كتفه ووجها انظارهما الى حافة الوادي الشمالية. وقد اصاب بيرارد فيما قال لانه في تلك الدقيقة خرج من الغاب خنزير ومر كالبرق قبالتهما وكانت المسافة بينه وبينهما متوسطة فاطلق عليه جان رصاص بندقيته على بعد خمسين خطوة دون تمهل فاخطأ المرمى ولم يصب الوحش. ولو كان جرح لكان ارتد على

الصياد المتسرع لان الخنزير اذا جرح لا يهمه الا الانتقام. والا فانه يهرب لا يلوي على شيء. وهذا الخنزير لم يخالف القاعدة اذ التفت بخفة الى شماله وتغلغل في الادغال

ومع ذلك فان الصيادين اقبلوا يطاردون الخنازير وامامهم الكلاب وعقبها الخيالة على بعد مائة متر وهم يعدون وكان المسيو ديزورم في مقدمتهم. ولا عجب اذا كان جان لمح ثوب ريموند الاسود لا انه لم يتحقق الامر لضيق الوقت بل اسرع الى حيث دخل الخنزير

وكانت الكلاب قد وصلت اليه فصاح بها مشيراً الى المضيق الذي دخله الوحش. لكنها وقفت ترتعد لهول ذلك الموقف. لان الحيوانات البهيمية متى اشرفت على مورد مهلك مالت من طبعها الى النفور والتباعد عنه وقد يهون على الكلاب عندئذٍ مواجهة الوحش. لكنه يصعب عليها مطاردته بين تلك الادغال المشتبكة الاشواك المتلبدة الجذور. ومع اغراء الصيادين لها بكل ما لديهم من الوسائل لم تخط خطوة واحدة لانها فطنت للخطر المحدق بها واخذت تعوي عواء الذئب وتصرخ صراخاً غريباً حتى ان الكلب الاكبر المسمى بيكفور احجم عن الهجوم فكيف بالكلاب الصغيرة

وتقدم الكونت الى تلك الادغال واخذ يفحصها لعله يهتدي الى طريقة للوصول الي الوحش. اما جان فانه اشار الى كلبه فلبى اشارته تاركاً سائر الكلاب وكان يتبع حركات سيده

ساكتاً اذا لم نقل قهراً . فاخذ جان يلاطفه ويغريه على الاقدام . فثارت النخوة في رأسه ودخل الاجمة غير مبال بالخطر وهجم على الخنزير هجوم الاسد وبعد قليل سمع نباح شديد عقبه انين وما عتم ان عاد كلوديون وهو لا يكاد يستطيع المشي وقد تلطخ جسمه بالدم

فاسرع اليه جان وقد يئس من حياته ولم يصل اليه حتى كانت ريموندة ترجلت عن جوادها وسبقته وانحنت فوق الكلب الباسل المسكين ثم التفتت الى جان قائلة :

دعني بحقك اتولى معالجته وارسل احد الصيادين الى الحوض القريب ليأتيني بقليل من الماء .

وقد كانت احضرت صندوقاً فيه الادوية اللازمة اذا اتفق ان جرح انسان او كلب او حصان في اثناء القنص . وكان من حسن الحظ وجود مثل هذه الفتاة اللطيفة التي غسلت جراح كلوديون وهي ثلاثة جراحات في الصدر والفخذ لا خطر منها وجرح في العنق وهو الاشد خطراً

جثت ريموندة على العشب وشرعت في معالجة الكلب بمعاونة جان ثم قالت : اني لاكثر الماماً منك بالطب الحيواني يا مسيو ليزارديار ولا اخالك تغتاظ من هذا . ولما انتهت نظر اليها الكلب بعين شاكرة كانه عرف جميلها

وسمع بغتة صوت طلقات . وما لبث ان اقبل الكونت

وهتف. لقد قُتل فاذهبوا واتوا به من الاجمة

فساله ديزورم: وهل قتل الخنزير

— نعم هو هو بعينه فاسالكم ان تعيروني سمعكم لاقص عليكم ما يفيدكم في المستقبل

وهنا تقدم الكونت بوقار وسكينة دون عجب ولا افتخار ونطق على مسامع الصيادين بالخطاب الاتي:

مشيت حول هذه الاجمة وحدي وانا اقول في نفسي: قد يستحيل خروج الخنزير من الاجمة ان لم تطارده الكلاب ولا اظنها تفعل ذلك الا اذا خاطر احدها واقدم على مطاردة الوحش الخائر القوى الذي يتوهم ان الكلاب كلها تطارده فيخرج من فوره ويأخذ الطريق الاقرب الى الاجمة المجاورة فارصده هناك. وما كنت اخال نجاحي اكيدًا لكني حالما سمعت نباح كلوديون وسط الاجمة واذينه الذي دلني على انه اصيب باذًى اسرعت الى الطريق المذكور فرايت الخنزير في منحدر من الارض وهو يستنشق الهواء فاطلقت عليه رصاصة جرحته في كتفه فدار وهجم وقد فتح شدقيه فافرغت للحال فيهما رصاصة من بندقيتي بلغت رئته فلم يعد يستطيع التنفس. لكنه مع هذا كله ما انفك هاجمًا علي وقد اضاع رشده وفتح فاه ليتنفس فاغتنمت فرصة تنفسه واطلقت رصاصة ثانية كانت القاضية فسقط على الارض قتيلًا ولم يتعطل جلده. فعليه

السلام ولكلوديون تمام الفخر والاعتبار

وفيما كان انكونت يتقبل تهاني الجمهور وصلت مركبة عليها الوحش. فطلبت ريموندة ان يفسح لكلوديون الباسل الى جانب الخنزير. ثم اخذ الصيادون يتأهبون للانصراف وهم يثنون على الكونت وديزورم. ولما حان الفراق ارادت ريموندة ان تودع الكلب وداعاً ودياً ممتازاً قبل ان تمتطي صهوة جوادها فدنت منه ولاطفته قائلة: الامل ان يكون قد وقع الصلح وساد السلم بيننا اليوم

قال جان: نعم بدون ريب

قالت ايضاً للكلب: وبين سيدك

فاجاب جان: الصلح قريب ويتم اذا اظهرت السيد ما اظهرته لكلبه من الحنو واللطف

ولما كان القارئ الكريم يشارك الجمهور في الاهتمام بكلوديون والوقوف على امره نقول انه لم يمضِ على جراحه اسبوعان حتى اندملت وشفي تمام الشفا وفي مساء ذلك اليوم المشهور بينما كان جان وحده يتفقد جراحات كلبه الدامية قال بصوت منخفض: نعم انها كريمة الاخلاق وسوف ترضى

١٣

بطل المعرض . سر الكاهن

وكان بعد ايام ان جاء ديزورم وابنه راعول الى مرسيلي ليودعا الكونت واسرته ولم تكن ريموندہ معهما لانها سبقتهما الى باريس لاعداد لوازم المنزل لانعقاد مجلس الاعيان قريباً وهذا يدعو ديزورم الى ترك مزارعه والانخراط في سلك الاعضاء

وكان الوداع حبياً قدم جان في اثنائه كلبه كلوديون الشجاع الذي تماثل من جروحه وكلف ديزورم بتجديد عواطف شكره وامتنانه لريموندہ على تلطفها وبراعتها في معالجة كلبه العزيز

انقضت ايام الشتاء على اتم السكينة والترتيب فكان جان يعمل بجد ونشاط لا يعتريهما ملل مما زاد سرور نسيبته كرستيانه بعد هذا الانقلاب في اخلاقه وصارت مدلين اميل من ذي قبل الى الايقاع على البيانو بينا ان الكونت كان كقاضٍ منصف يرضي الجميع

وفي الوقت عينه كانت الاصلاحات جارية بسرعة عظيمة في صرح الليزارديار لان مكاتيب ريموندہ كانت تدفع مدير العمل ليسرع في الاصلاح . وهكذا قل عن بناء الدير والمستشفى اللذين

عرفت امرهما

ولما كان احد الايام وقف الكونت على سر نشاط جان وشدة رغبته في التصوير. وذلك ان جان اخذ انسباءه ذات يوم من ايام شهر اذار الى قاعة التصوير المختصة به وعرض عليهم اثنتي عشرة صورة من رسمه وقال لهم: ارجو منكم ان تنتخبوا صورتين من هذه الصور تفضلان البقية

فاجاب الكونت على الفور: صورة صيد الثعلب وصورة صيد الخنزير

اما كرستيانه التي كانت تتشبث بالامور ولا تبدي رأيها الا بعد الفحص الدقيق فقالت: اني اوافق ليوبولد في اختيار صورة صيد الخنزير. الا ترى كيف انحنت تلك الصبية الملتبسة الهيئة فوق كلوديون تغسل جراحه وكيف ان النسيم يحرك اوراق الاشجار الذابلة والخنزير المطروح على الحضيض له منظر هائل والكلاب تبدو عليها اثار الخوف والخيل تلهث تعباً بعد العدو الشديد. كل ذلك من المناظر الفتانة التي تأخذ بالابصار. اما صورة صيد الثعلب فلا اظنها تستحق الاعتبار لان لسان الثعلب احمر نظير جلده. واني افضل صورة غروب الشمس على المروج حيث تظهر الاشياء كانها طبيعية. الا ترى صورة ذلك الطير الكاسر المنقض من الجو بين تلك الغيوم المصطبغة بحمرة الشفق كيف انها مع بساطتها هي غاية

في الجمال. فعلى هاتين الصورتين وقع اختياري

فاصر الكونت على رأيه لان لا غروب الشمس ولا غيره يعادل عنده صورة الصيد. ثم قال جان: فلنسمع ما تقول مادلين

فقالت: قل لي اولاً ما تريد ان تفعل بهاتين الصورتين ايها العزيز لان هذه المسئلة فيها نظر

اجابها جان: ان سؤالك في محله يا عزيزتي. انني اريد ارسالهما الى معرض الفنون الجميلة في باريس

فصاح الكونت: لله درك من فتاة نبيهة

قالت مدلين: لو كنت مكانك يا جان لما ارسلت رسمين يمثلان الصيد لئلاً يتوهم الناس انك لا تحسن غير رسم الصيد

فصفق لها الكونت استحساناً وقال: بالله انك ضاهيت والدتك نباهةً وذكاء. وقبلت كرستيانه ابنتها واجمع رأي الكل على ارسال رسم غروب الشمس مع رسم صيد الدب الى معرض باريس

*

لم يمضِ على هذا زمن طويل حتى طارت شهرة المركيز جان ده ليزارديار وجرى ذكره في لحظة كالكهربائية مع ان الناس لم يعرفوا من امره سوى اسمه المذكور في لائحة اسماء العارضين

وما زال نجاح جان في ازدياد وصيته في انتشار. والشعب الباريسي

يتحمس لمثل هذه الامور في حينها لسببين الاول ميلهم الى التغيير لان العامة من الناس وان كانوا لا يكسرون اصنامهم فهم يحبون تغييرها. والثاني ان للمصورين والحفارين محافل عديدة فان اسواق الرسوم والتماثيل الحجرية والمعدنية لا تكاد تحصى لكثرتها ولا شيء عندهم اهم من المباراة والمسابقة التي اقاموا لها المعارض. وكل معرض له بطل او اسد ينال الفوز تاركاً غيره من المعارضين كالاشبال الصغيرة التي تشحذ اسنانها ولا تفوز بشيء.

فصاحبنا المركيز ده ايزارديار كان بطل المعرض سنة ١٨٦٨ لان المدققين في صناعة النقد وضعوه في رتبة كوروت وكوربه المشهورين بل جعلوه فوقهما منزلة واخذ محررو الجرائد يتبارون في تقريظه ويروون عنه روايات مختلفة لا تتعدى الحدس والتخمين لجهلهم حقيقة امره. قال بعضهم: ان جان ده ايزارديار اسم زور لا صحة له وان مصور صيد الخنزير الحقيقي راهب اضطره رئيسه الى اخفاء اسمه. وزعم غيرهم ان صورة الخنزير قديمة العهد اكتشفت في قصر قديم واصلحتها يد مصور بارع. ومن جملة هذه الروايات مقال اقرب الى الحقيقة نشره احدهم وهو يتضمن حديث مبارزة قتل فيها جان ده ايزارديار مهندساً هنغارياً كان قد اهانه...

هذا كله عرفه جان من رقيم بعث به اليه تاجر صوَر يسأله

باسم مثرٍ اميركي واميـر روسي كانا يتزايـدان على الصورتـين المذكورتين ان يوافيه الى باريس. ولا عجب ان احدث هذا الرقيم سروراً عظيماً في مرسيلي

قال الكونت لجان: اذاً سافر غـداً. ولا تدع الاميـركي والروسي ينتظران اياماً طويلة

— لكني لا اسافر الا نهار الاثنين لان اليوم السبت

— ولماذا

فاجابـه صوت لطيف من البـاب: لان غداً الاحد. وكان المتكلم كاهن قرية مرسيلي الذي دخـل عليهم في تلك الساعة

— اجاب الكونت ضاحكاً: لقد بادهتني بالارشاد يا ابتِ من حـين دخولك واني استحق ذلك لانني لا احضر القداس الا عند قراءة الانجيل. على ان لي عليك حقاً اطالبك به ايها الاب وهو انك سحرت نسيبي جان. لانه بعد ارسال الصورتين الى معرض باريس لم يعد يرى الا في قلايتـك وقد تأكد عندي صحة ما ينسبونـه اليكم معاشر الاكليروس من التدخل والتعدي على حقوق الغير

— ان ظنك في محله وغداً تعرف سري

وفي صباح الغد رأى الكونت والكونتة ان الشعب محتشد في فنـاء الكنيسة وعند بابها فوق العادة واشارت مدلين التي لا

يفوتها امر الى والدتها عند ما كانت في الكنيسة تنظر الى جهة الهيكل وتعجبت كرستيانه كثيراً لوجود ملاءة زرقاء تغطي شيئاً على الحائط الابيض حتى اغفلت كتاب صلواتها. ولكن لم يطل الامر حتى كشف عن الغامض. لانه بعد تلاوة الانجيل ارتقى الكاهن الفاضل منبر الوعظ وفي ختام العظة بشر ابناء رعيته بصوت متأثر لطيف بان رغبتهم الصالحة قد تحققت وان كنيستهم اصبح فيها الان صورة توازي البناية المقدسة قيمة واعتباراً

وللحال ازيح الستار بيد غير منظورة فظهرت للعيان صورة بديعة تمثل سجود المجوس للمسيح ضمن اطار مذهب مما اخذ بالابصار ودهش له ذلك الجمع الغفير. وبعد صلوة وجيزة استطرد الكاهن الكلام فقال:

اتعلمون من اتحفنا بهذه الصورة الثمينة. انه مواطننا المصور الشهير الذي رن صدى ذكره في مدينة باريس. مولاي المركيز جان ده ليزارديار هو الذي اراد ان يقدم باكورة قريحته الوقادة لله عزّ وجلّ. ولا جرم ان هذا العمل المبرور يستنزل السعادة والتوفيق من لدنه تعالى ويكتسب ثناء هذا الكاهن الشيخ الذي يشكر له هذه التحفة النادرة ويبارك اعماله ويسألكم ان تشاركوه في الدعاء للمحسن المذكور لكي تتكلل اعماله بالنجاح بمن الله وكرمه

ثم ترك المنبر وذهب لتقديم الذبيحة الالهية وعيون الحضور

شاخصة الى تلك الصورة التي سلبت الابصار والقلوب

اما الكونت والكونتة فكان فرحهما الفجائي مقروناً بالدهش ولم تتمالك مدلين من الكلام عند تلاوة «نومن» فهمست في اذن ابيها قائلة: انظر يا ابي ان كسبار ملك المجوس الذي يقدم الذهب يشابهك. والملك الذي يهدي اللبان يشبه جدي والملك الثالث الذي يقدم المر مثل عمي الاميرال. انظري يا امي ان العذراء الحاملة الطفل يسوع كم تشبهك. والفتاة الجاثية الى جانب المذود اتعلمين من تشبه

- انها تشبهك يا ابنتي لكن عليك الان ان تكوني منتبهة الى صلواتك

اما الكونت فلقلة اصطباره ما صدق ان انتهى القداس حتى اسرع فدنا من الصورة وحوله اعضاء البلدية واعيان القرية واخذ يغالي في وصف جمالها وعلى الخصوص الملك كسبار. اما جان فانه تفادياً من اطراء الجمهور خرج مع كرستيانه ومدلين وساروا توًا الى القصر

وكانت مدلين تجمع في طريقها زهرات الربيع

وتابطت كرستيانه ذراع جان وقالت له بلطفها المعتاد: لقد احسنت فيما فعلت يا ولدي اذ احببت من يحبك لان ذلك شريعة بسيطة حلوة. واعلم ان في الكون ثلاثة جديرة بان تكون اعظم

الامور وهي : الله والعائلة والوطن . وقد خدمت الاول والثاني بما ابديته من الاحترام والعطف . وسوف تخدم الثالث بعملك وحسن سلوكك . وها انت الان على وشك السفر وستتركنا مدة من الزمان فاحذر من العجب الباطل والمجد الفارغ . واذا اثريت فحذار ان يسبب لك الغنى نقمة عوض النعمة . وسامحني يا ابن الخال العزيز لاضافتي هذا الذيل الصغير على عظة كاهننا الفاضل

— شكرًا لك يا عزيزتي على كل حال . وليطمئن بالك من جهتي لانني اذا كنت احب الثروة فسوف تعلمين فيما بعد لاي سبب

— نعم لقد تذكرت الان ان لم يزل هناك سر غامض اشبه بصورة سجود المجوس عند ما كان الستار ملقى عليها . وبهذه المناسبة اقول انك حذوت حذو مصوري الاسبان اذ جعلت شعر السيدة العذراء اسود

— ليس ذلك قاعدة مطردة لكني لما رسمت هيئتك اضطررت ان ارسم شعرك ايضاً

— لو اخترت الشعر الاشقر لكان اليق

— انني لا احب الشعر الاشقر

— أعجب من ذلك . . . وكان في هذه الكلمة معنى لا يجهله القارئ اللبيب . وهنا دخل الكونت فقطع كلام زوجته وقال

لجان مازحاً :

الملك كسبار يحييك يا سنيور رافائيل . وعنى بهذا المصور الايطالي الشهير ثم اثنى الكونت على جان لاهدائه الصورة المتقدم ذكرها ثناء جميلاً

١٤

سرّ جان

ما كاد المركيز الشاب يدخل باريس حتى سمع ذكره يرن فيها رنيناً وكان الناس في الاندية والمجتمعات على اختلاف مشاربهم يطلبونه حتى انه حضر وشاهدوه واعجبوا بما كان فيه من المزايا الطبيعية فضلاً عن ادابه وسلامة سريرته . لكن تجار الصور لم تعجبهم منه خصلة واحدة وهي انه لم يكن يتقاضى لاجل صوره الاثمان التي يريدونها هم . فقد احضر معه اثني عشر رسماً وعين لكل رسم منها ثمناً محدوداً كما اراد فباع هذه الرسوم التي اوصاه عليها كثيرون ولم يمض عليه شهر من الزمان حتى وضع في البنك ثلاثمائة الف فرنك لحسابه الخاص

ولما حان توزيع الجوائز في المعرض نال جان وسام الشرف . وقد احب وزير الصنائع والفنون ان يضيف اليها الصليب . وهذا الوزير كان داهية فقال لجان . يا مسيو ده ليزارديار انني اعلم بانك

من الحزب الملكي وهذا صليب الامراء فاقبله من يد وزير بونابرتي ولعل الوزير الذي يقدم لك بعدي صليب الضباط يكون من الحزب الملكي

وقد اقام بطلنا هذا في باريس اربعة اشهر كان يكتب في خلالها الى كرستيانه كل اسبوع وهذه كانت تجيبه عليها واننا نقتصر على ذكر رسالتين من رسائلهما عن مرسيلي في ١٥ حزيران سنة ١٨٦٨

ابن خالي العزيز

يعلم الله شوقي اليك. ان رقيمك الاخير كان اصغر حجماً مما قبله وهذا يدل على قرب رجوعك الينا ان شاء الله وانك ابقيت اشياء تحدثنا عنها في سهراتنا وروحاتنا على الروابي والتلال ولا بد لي ان اقول لك اليوم شيئاً يتعلق بك وهو: انك اصبحت اليوم غنياً فينبغي لك ان تنتفع بما لك وتزيده. ولا يخفى عليك ان زوجي لا يميل الى التجارة بالسفاتج والسندات اذ يعتبرها اوراقاً تطير مع الريح. فرأى ان يعرض عليك الحقل المسمى لاماري فهو معروض للبيع بثمن لا يزيد عن ثمانين الف فرنك ومحصوله لا يقل عن الفي فرنك سنوياً. واذا انفقت على اصلاحه نحواً من ثلاثين الف فرنك زادت غلته زيادة معتبرة تكون احسن تجارة. فضلاً عن انه يوافق ذوقك وتكون قريباً الينا ويتسنى لليوبولد ان يصطاد في ارضك

ذ لا تكفيه اراضيه الواسعة. خلاصة الامر انني في انتظار الجواب عن هذه المسئلة. وقد عجبت كيف لم تذكر الانسة ريموندة في تحاريرك مطلقاً وترجح عندي انك صادفتها بين جماهير الناس. فقد سمعنا انها حسناء باريس اليوم وربة الجمال فيها. هذا والله يعليل عزيز بقائك

لابنة عمتك

كرستيانه

وبعد ايام ورد الجواب من جان وهذا هو بنصه:

عن باريس في ٢٨ حزيران سنة ١٨٦٨

ابنة عمتي العزيزة الفاضلة

لقد كان ظنك في محله من حيث عزمي على السفر قريباً اليكم لقصر كتابي الاخير. وكم يكون سروري عظيماً بمشاهدتكم بعد طول الفراق بل كم يكون اعجابي وفخري بما نلته عالماً بان مرجع الفضل في ذلك كله بعد الله اليك وانني اجابة لرغبتك سابتاع حقل لاماري

على ان عندي مشروعاً اخر وهو السر الذي لم ابح به كل هذه الايام مخافة الفشل وهذا المشروع هو استرجاع قصر الليزارديار الامر الذي لاجله اشتغلت بلا سأمة وسعيت في جمع الاموال بلا ملل. انني بحاجة ماسة اليه ولا بد لي من استرجاعه. لانه يضم رفات اجدادي وعليه شعارهم. وهذا يؤدي بي الى ذكر

الانسة ريوندو. انني لم اقابلها ولم اسعَ للاجتماع بها. ولكن منذ يومين جمعني بها مجلس انس اقامه احد كبار المدينة فرايتها بغتةً وجهاً لوجه يحيط بها جمهور من الضباط والامراء وكتبة المجلس وهي تأمرهم فيأتمرون وتشير اليهم اشارةً فيلبّون كانها كاليسو قبل وصول عولس. ولست انكر عليها الجمال والحسن. وكأنها ملكة عليها من ملايين ابيها تاج غير منظور. ولكن العجب والزهو لا يجملان بمثلها فقد كانت زهرة بنفسج اليق بها واجمل. على انني اكون ناكر الجميل اذا لم اذكر ما ابدته نحوي من اللطف والايناس في ذلك النادي الغاص بوجوه القوم وكبارهم. وقد تلطفت بالسؤال عنكم وهنأتني بنجاحي وتقدمي وتخلصت احسن تخلص فقالت مبتسمة: وكاوديون كيف حاله. اما علمت بانني انتبهت الى صورته في رسم صيد الخنزير — ولم تذكر اذا كانت انتبهت الى صورتها او لا

وخلاصة القول انها كانت بديعة الحسن وانما تنقصها البساطة

واعلمي بانني ممن يؤثرون في المرأة جمال النفس لا جمال الوجه ويقدرون المواهب العقلية فيها حق قدرها. ولم تغير الفرقة شيئاً من طباعي وسابق عاداتي. أُصغي كثيرًا واتكلم قليلًا ولا يسعني السكوت عن التصريح بافكاري من جهة الانسة ديزورم. ولي وطيد الامل انها لا ترد علي طلبي استعادة الليزارديار فاؤدي لها

ثمنه ونفقات اصلاحاته. عنفيني ما شئت ايتها العزيزة فاني مستحق التعنيف لما احفظه في قلبي من الحقد والضغينة لهذه الفتاة لانها احتالت علي بلطف وصغرت قدري بقوة سخائها وكرمها فضلاً عن تلك المبارزة التي لولا لطف الباري تعالى لما كنت سلمت من شرها. اما كلوديون فانه من حزبها ومريديها. ور بما تتهميني بالقسوة والتعصب من جهتها. لكن الخطة التي رسمتها لنفسها ليست خطة اعتدال. اما سمعتِ بانهم يدعونها بالحسناء الظالمة؟ لقبوها بهذا اللقب لشدة انفتها وعدم اجابتها سؤال طالبيها ممن يريدون الاقتران بها حتى انهم اعتصبوا على ان يسلوها ويعرضوا عنها فهذا ما عرفته من امرها على ان ذلك كله انساه. بل اتناسى من كل قلبي ما سببته لي من الغم ومرارة العيش اذا هي ردت الي قصر اجدادي المحبوب. وقد سهوت عن اخبارك بان الانسة ريونده تسافر غداً الى قرية تورين وسوف تقضي بضعة ايام في الليزارديار الذي اصبح الان صالحاً للسكن. ولي الرجاء بان تقودي تكفي لابتياع المكانين: الليزارديار لحاجتي اليه وحقل لاماري اجابة لرغبتك. اقدم احترامي الى الكونت واشواقي الى مدلين. فالى اللقاء ايتها العزيزة. انني اسهبت في الكتابة لشدة محبتي لك وزيادة سروري

ابن خالك

جان

والقارئ اللبيب يدرك السرور الذي احدثه رجوع جان بعد غيابه الطويل . ولقد قيل : اننا في الشدائد نعرف اصدقاءنا المخلصين . اما نحن فنقول : اننا نعرف الاصدقاء في السراء . وقد اخطأ من زعم ان في افراحنا شيئاً يسوء اصدقاءنا . ولقد كان رجع عن رأيه هذا لو شهد رجوع جان الى قصر الكونت وما لقيه من انسبائه المحبين من الحفاوة اذ كانت عيونهم تتكلم والحاظهم افصح من الالسنة واصدق برهان على ما في قلوبهم من المحبة والاخلاص

اما مدلين التي لم يسعها الصمت فقد حلت رباط الاوسمة التي على صدر جان وربطتها نحواً من عشرين مرة . ثم اخذوا باطراف الحديث وقد خيم فوقهم السرور والسعادة حتى اذا حان وقت الغداء جلسوا الى مائدة انيقة شرب في اثنائها الكونت نخب جان واتبعه بشيء من نوادره وفكاهاته ومست كرستيانه الكاس بشفتيها لانها لم تتعود شرب الخمرة وشربت شيئاً من شراب حلو

وما انتهوا من الطعام حتى ذهب الكونت للنوم كعادته . اما جان فاخذ الكونتة الى جانب وقال لها : ارجو منك يا عزيزتي ان تتمي احسانك اليّ وترافقيني غداً الى الليزارديار

— ولمَ هذه العجلة

— ان ريموندہ وصلت امس ومما كتبته لك في رسالتي تعرفين سبب عجلتي

١٥

سر ريموندہ

كان ديزورم وولده راعول قد خرجا الى النزهة في البرية وجلست ريموندہ وحدها في قاعة الليزارديار الكبرى. ولم يكن ذاك القصر على الحال التي رايناه عليها في ابتداء هذه الرواية. فقد جرى ترميم ما تهدم منه واصلاح ما فسد بتوالي الايام وجعل في فنائه قوارير الزهور المختلفة وغرست حوله الاشجار الباسقة حتى اصبح جنة فيها من اطيب الفاكهة. اما داخله فقد دهن بالالوان الجميلة ونقش بالنقوش البديعة وفرش بالاثاث الثمين والرياش الفاخر وعلى الجملة فقد تبدلت حال ذلك الصرح من الفاقة والفقر الى السعادة والغنى

بعد ما انتهت ريموندہ من مطالعة كتاب من الكتب النفيسة وضعت الكتاب جانباً وشخصت ببصرها الى شعار الليزارديار المرسوم في جدار القاعة واذا بالباب فتح واعلن الخادم قدوم الكونتة دہ شازہ والمركيز دہ ليزارديار. فارتجفت الفتاة لاول وهلة لكنها تمالكت واسرعت الى ملاقاة الزائرين الكريمين وبعد التحية

بادهتها الكونتة بالكلام فقالت . اني وان كنت افوقك سناً فقد سبقتك في الزيارة . على ان لابن خالي حاجة غير الزيارة جاء يسألك قضاءها

- هذا اذا لم يكن قضاء هذه الحاجة مستعيلاً

- ان حاجتنا هي معروف جئنا نستحضره منك

- اريد الوقوف عليه حالاً

- تعلمين ايتها الانسة كم تمنعت عن بيع هذا القصر وما قاسيت بعد خروجه من يدي . وكان من حسن الحظ وقوعه في يديك مما يسهل لي استرجاعه فهل لك ان ترديه عليّ واطلبي ثمنه ما شئت

فاكمد وجه ريموندة وتفرست في جان هنيهة ثم قالت بلهجة لا تخلو من الخشونة : هذا مستحيل يا سيدي

- وما السبب يا سيدتي هل لك غرض او غاية من هذا المكان ولا علاقة لك بماضيه البتة

- لعلك مصيب من بعض الوجوه . ولكن اتظن ان الاشياء تعتبر اهميتها من حيث التذكار فقط . اولا تعلم بان للشعور والذوق علاقة كبرى بالامور . انني احب هذا البيت القديم ولولاي لكان حتى الان خربة . فاسمح لي بالبقاء فيه فقد كان ملكك ولم تسمح وهو الان ملكي فاريد الاحتفاظ به

— شرعاً هو ملكك. ولكني استطيع القول بانه لا يزال ادبياً ملكي. وانني املاً باسترجاعه قد اشتغلت كعبد وصرفت الايام والليالي بين الخوف والرجاء. فارجعيه الي ان كنت عادلة وفاضلة فلا خسارة عليك بذلك. واي نفع لك من وراء هذه الحجارة والجدران المرسوم عليها شعار اسرتي وهذه المدافن التي تضم رفات اجدادي. اما انا فان هذه الاطلال والرسوم علة حياتي وقد مضى على باقة الزهر الموضوعة على ضريح والدتي نحو من سنة. فارجعي لي ياسيدتي هذا الضريح

فتوقفت ريمونده مترددة واعادت النظر الى جان ورفعت صوتها وقالت: هذا مستحيل

— لا حاجة الى الالحاح في الطلب بعد. وها قد نسيت موقفي والمقام الذي انا فيه. فاتركك مع نسيبتي لان هناك الاماً تقتضي الاعتزال وسارجع الى مكان اقامتي واتلفت من فوق تلك الروابي مودعاً بنظرة اخيرة بقعة هي عندي اعز شيء من الدنيا واستنشق لاخر مرة نسيم منزلي المحبوب

قال هذا وحيًا وانصرف وانظار الفتاة تتبعه حتى اذا تأكدت ذهابه دنت من الكونتة واقتادتها دون ان تفوه بكلمة من القاعة. فنزلت بها السلم وفتحت باب المعبد واشارت بيدها الى ضريح المركيزة والدة جان حيث وضع على قاعدة عامودة قنديل ذهبي ينبعث منهُ نور لطيف

وتحته قارورة زهور برية واكليل جميل لم يزل على نضارته كأنه جمع حديثاً

وظلت ريموندة بضعة دقائق وعيناهـا شاخصتان الى القنديل والزهور ويدهـا في يد كرستيانه. ثم اوصدت باب المعبـد والقت رأسها على كتف الكونتة واخذت تبكي فطوقت الكونتة عنقها وجدائلها الذهبية بذراعيهـا وانحنت فوقها وقبلت جبينها الناصع حتى اذا تحولت زفرات ريموندة دموعاً تترقرق على خديها قالت لها الكونتة بصوت خافت: اذن انت تحبينه

- نعم
- من اي زمان
- من اول نظرة فيه. اما هو فالذي اعرفه انه يبغضني
- وان بينكما سوء تفاهم بحيث لا يعرف احدكما الاخر
- لا فرق بذلك

طفر الدمع من عيني ريموندة ثانية. فوقفت كرستيانه صامتة تنظر الى دموع الفتاة ثم انهما تقدمتا الى جهة الهيكل وجثت ريموندة على احد جوانبه وهناك استسلمت الى البكاء. فقالت لها الكونتـة: ليست هذه هي الطريقة المثلى لنيل مساعدة العذراء القديسة بل ينبغي ان تجثي الى جانبي لنرفع صوتنا بالصلوة معاً ففي الصلوة قوة وراحة

وبعد صلوة وجيزة انهضت الكونتة ريموندة الى صدرها وقالت: كفى يا ابنتي. فاتركي الان البكاء واعيريني سمعك. انني

لم ابلغ من السن مـا يجعاني اماً لك. ولكن يمكنك ان تحسبيني اختك الكبرى ومشيرتك المخلصة

— اكون مسرورة وشاكرة لفضلك ولكن هذا لا يغير مجرى الاحوال

— انك غير مصيبة في هذا يا ابنتي اذ لا يوجـد صعوبة بينك وبين جان وارى الاوفق ان يعاكس احدكما الاخر الان لا فيما بعد. فان في جان مساوئ اهمها مفاخرته بطيب عنصره وشرف اصلـه وهو الداء الذي اعالجه واملي وطيد بشفائه منه. ولست اخفي عليك ان فيك ايضاً بعض هفوات يسهل استئصالها اذا شئتِ

— مري بما تشائين فلا ترين مني الا الطاعة

— انني واثقة بهذا يا ريموندة ولا يمضي عليك سنة حتى تبلغي باذن الله درجة الكمال

فابتسمت الفتاة وقالت:

ولكن هناك مسئلة لا بد من اطلاعك عليها وهي ان السبب الذي حماني على ان ابتاع هذه الخربة وافعل بها ما فعلت لم يكن محض وهم بـل لانني كما قلت لك قد احببت. . . . جان لاول نظرة بعد ما رأيت من جميل صبره ايام الشدة وما خبرته من انفته وغضبـه الدال على عزة نفس وما لحظته في عينيه من النور العجيب بحيث انني لم ارَ له نظيراً في من وقعت عليهم عيني من شبان هذا

العصر مما سبب انجذاب قلبي اليه. ولقد كنت عزمت على اعادة هذا القصر له لانه ادبياً ملكه كما قال واجبته الى طلبه دون تردد. لكني اعلل النفس بان جان اذا عاد الى قصره فلا يطردني منه واملت ان روحي تؤثر في روحه فان الناس يقولون انني جميلة

— نعم جميلة جداً يا ريموند

— على انني مع هذا كله لم اكن لارد طلبه لو كان بغير صورة. ولو تنبهتِ لما كان تحت كلامه وفي هيئته من معاني الاحتقار والازدراء لعذرتني على تمنعي وتحردي. نعم انني لست من دم الاشراف الدم الارجواني. لكن الدم الاحمر دم الشعب تحرك في عروقي عند الاهانة فقلت من عظم غيظي: لا. وقد اخطأت فيما قلت وفعلت فارجو منك ان تبلغيه هذه الليلة انني رجعت عن رأيي من حيث الاستمساك بهذا القصر فيمكنه ان يستلمه اي وقت اراد

— كوني على تمام الثقة ان جان غير مغتاظ

— مهما يكن من الامر فانه باسترجاع القصر يتخلص من آلامه

— وقد يزيده حباً لك

— لا ولكن لعلي ازيد استحقاقاً لحبه

— كل هذا ليس بكافٍ فينبغي لجان ان يحبك وهذا امر

تدبيره عليَّ . لانك قد اكتسبت محبتي التي لا تكتسب بسهولة وانا اروم لك السعادة مقرونة بسعادة جان . وسوف نشرع في العمل من نهار غد فتذهبين كل يوم الى مرسيلي واجيء احياناً الى هنا فنسعى لكي تكون حياتنا وافكارنا ممتزجة . وكل صلاح فيَّ اتنك اياه حتى يجده جان فيك والله ولي التوفيق . فاسأليه بشفاعة العذراء الطاهرة ان يكلل مشروعنا بالنجاح

— ساكون بغاية الامتنان اذا اجتمعت به في بيتكم غير ان اللقاء يسبب لي الاماً لا تطاق

— كوني براحة من هذه الجهة يا ريموندة ان جان لا بد ان يفارقك مدة طويلة

— مدة طويلة

— نعم ولذلك اسباب توجب تغيبه عنك افلا تفضلين احتمال هجره زماناً

— يا الله . . لربما

— ذلك امر لا بد منه والان استودعك الله ياريموندة يا تلميذتي الجميلة اطمأني بالاً فليس احد غيري يعرف سرك

— اني على يقين تام بانه سيكون سرًا مقدساً تحفظينه الى ما شاء الله

— احفظه كما حفظت غيره من الاسرار التي استودعتها

واديت عنها حساباً لله

واكمد وجه كرستيانه عند هذه الكلمة ولكنه ما لبث ان عاد الى صفائه فقبلت ريموندة التي شيعتها الى العربة فودعتها كرستيانه بهذه الكلمة: تشجعي. وما زالت الفتاة ترافق العربة بنظرها حتى غابت عن العيان واذ ذاك قالت الكونتة في نفسها: ما احسن السعي في اسعاد القريب وتعزيته

١٦

جامس ابوت

بعد ان عاد جان الى محل اقامته في القصر الصغير جلس وحده في مكتبه وقد اشتد عليه الحزن وتقسمته الغموم والفكر حتى انه انتهر كلبه كلوديون قائلاً: انها داوت جراحك ولكنها نكأت جراح سيدك

واذا بكرستيانه تدعوه ثم دخلت ووجهها وضاح وثغرها باسم وجلست الى جانبه وقالت له: اما تذكر انك طالعت كتاب رسائل كزافيه رميه من اميركا

— لا اذكر يا عزيزتي

— لقد فاتك امرهم

وناولته كتاباً كان في يدها وقالت :

هـذا احب الكتب الي فهل لك ان تقرأ جهراً هـذه الصفحة . واشارت اليها باناملها اللطيفة

— لا ميل لي الى القراءة الان واني لولا وجودك لفضلت السفر الى اميركا بل الى ابعد مكان في الدنيا على قراءة تحاريرمن اميركا

— يظهر اننا متفقان في الرأي فاقرأ الان

— اذن انت مصرة على ان اقرأ

— نعم ارجو منك ذلك . وقدمت له الكتاب فاخذه متعجباً من طلب كرستيانه الغريب وقرأ ما يأتي :

« في سنـة ١٨٢٩ قدم شاب غريب الى نياغرا في الولايات المتحدة قصـد الاقامة فيها بضعة ايام فمرت الاسابيـع والشهور والشاب يذهب كل يوم صباحاً ويقعد عند شلالات نياغرا العجيبة صامتاً متأملاً حتى انه كان يلبث هنالك سابحاً في فضاء التصورات في ظلام الليل الدامس وكان اسمه جامس ابوت . ولم يعلم الناس شيئاً من امره ولا من امر وطنه واصله . وكان كل من رآه يعجب بوقاره ولطف اسلوبه وقـد علم الذين حادثوه بانه سافر كثيراً ودرس كثيراً ولم يستطع احد ان يكتسب صداقته . ولم يكن من الفئة التي تبغض الفـة البشر لكنه تجنب معاشرتهم واختـار لهُ حمامات غير مطروقة اقام وحده فيها . وحده على الروابي والاكام .

وحده في الغابات والاجام . وكان يعنى بنفسه في ترتيب طعامه وشرابه ولم يُسمع ان احداً عابه بشيء . فهل كان كأس افراح هذا الشاب مرّاً الى حد انه لم يشأ ان يمسه بشفتيه ؟ او هل تنازعه الاحزان والهموم حتى انه لم يذق طعم المسرات والافراح ؟ او هل اشتغل قلبه بمحبة شخص واحد واقفل بابه في وجه سواه ؟ تلك امور لم يقدر احد ان يعرفها بل بقيت سرّاً مكتوماً . وفي صباح ذات يوم من ايام حزيران سنة ١٨٣١ خرج جامس يستحم على مألوف عادته في النهر ولما كان اليوم التالي اخرج بعض صيادي السمك جثته الى البر وقد كان الماء حملها الى مسافة خمسة عشر ميلًا فدفنوه في البقعة التي كان كثيرًا ما يجلس فيها ساعات طويلة صامتاً يحدق في الشلالات التي كان صوتها كالرعد . وبعد مدة علم بانه من اسرة عريقة في النسب في بلاد الانكليز لكن سره بقي مكتوماً في صدره لم يطلع عليه احد وسبب حزنه واعتزاله دفن معه . وكان هذا المسكين عند ما مات ابن ثماني وعشرين سنة »

فلما انتهى جان من القراءة التفت الى الكونتة كأنه يستفهم مقاصدها الغريبة

فقالت : ايها النسيب العزيز . ان جامس هذا لا بد من ان يكون اعجبك لكونه يشابهك . فهو قد جرح مثلك في حياته

لكنه كان ابلغ جرماً وانني اشتهي . . اتريد ان اصرح لك بما اشتهي

- صرحي

- اشتهي الحصول على زهرة مما ينبت على قبره وارغب كل الرغبة في ان اقدم عن نفسه بعض قداسات في المحل الذي عاش ومات فيه

- لا شيء اهون من ذلك . وتبسم بالرغم منه واردف قائلاً : ان المثري الاميركي الذي اشترى مني صورة صيد الخنزير له حقل الى جانب بحيرة « اري » التي لا تبعد كثيراً عن نياغرا وهو كاثوليكي المذهب فساكتب له حالاً بهذا الشأن

- هذا لا اريده . فلعل صديقك يغشك او يغش هو نفسه . بل اريد زهرة حقيقية من فوق قبره واتأكد كل التأكيد كون القداسات تقدمت

- اذاً ماذا

- لا اجسر على القول فلعلك تنسبه الي الحماقة

- لا لعمري

اذاً اتكلم . . تلك الزهرة . . .

- امضِ على كلامك ولا تخشي

- اريد ان تحضر لي تلك الزهرة بنفسك

- ماذا تقولين فهل اذهب بنفسي الى اميركا لاحضارها

— نعم فقد قلت منذ قليل انك ترغب في الذهاب الى هناك

— ان هذا الفكر في غير محله فما الذي حملك عليه

— اسباب كثيرة منها ان تدرس عالماً عظيماً في بلاد عظيمة وتوقفني على اخلاق الاميركان وعاداتهم وهذا امر لا يضر بك ايها المركيز النبيل . ولي غاية اخرى — كن على ثقة من قولي هذا — وهي ان كان من امـل في استرجاع الليزارديار فلا بد من الحصول على تلك الزهرة عن ضريح جامس ابوت

— انني مع اعتقادي التـام بك احب الحصول على مفتـاح هذا اللغز

— لا تحصل عليه الا بعد رجوعك

— وهل هو خطير

— خطير جداً وعليه يجب ان تسافر غداً بعـد اعطاء الاوامر اللازمة لوكيلك المحامي لاجل ابتياع حقل لاماري الذي فيـه ربح كبير والكونت يرتاح الى ذلك كل الارتيـاح كما اوضح لك

— لقد تقرر مشترى الحقل . وثقي بتقديم القداسات . ولا يمضي ستة اسابيع على سفري حتى يصلك مني باقة زهر من على قبر جامس ابوت

— ان ستة اسابيع لا تكفي فانا اعطيك مهلة عشرة اشهر

— بعشرة اشهر اطوف حول الارض

— نعمًا ما قلت فلست اريد ان تعود الا في شهر ايار المقبل ولي بذلك مقاصد

— الى الان لم يحل اللغز فهل تفتكرين بالليزارديار يا ترى

— اظنك استفهمت كفاية فلن ترى مني جواباً بعد

— لقد وضح عندي ان النساء اليوم شريرات حتى انتِ

— انك مخطئ يا جان في هذا. حتى ولا ريوندہ

— بحقك الا تحلين لي هذه الالغاز

— بعد رجوعك من نياغرا ان شاء الله

١٧

بعد غياب جان

سافر جان صباح اليوم الثاني قياماً بوعده. فلنتركه يركب القطار الى الهافر فيركب البحر الى نيويورك ومنها في النهر الى البني ثم يركب القطار الى مونتريال فنياغرا. ولنعد الى مرسيلي لنرى ما يجري على ضفاف نهر المولن

ان ريوندہ قامت بوعدها للكونتة فجاءت مرسيلي ثاني يوم كشف سرها. وقد بغتت عند وقوفها على سفر جان الفجائي لكنها ما لبثت ان عادت الى سكوتها لشدة ثقتها بصديقتها

ولا شيء اجمل والذ من رؤية امرأتين الواحدة واقفة على

اسرار الاخرى . وان عروس الرواية لا تزال تتقسمها الهواجس وتتوزعها الفكر مخافة ان تلاقي ملامة او اعراضاً . فهي في خوف دائم وقلق مستمر تريد ان يكون امرها معروفاً دون ان تتكلم هي عنه فما احلى التعزية وما امر الملام على قلبها

اما المؤتمنة على السر فهي احسن حالاً من عروس الرواية لانها تشعر بالاعجاب والفخر اذا اقبلت على رفيقتها تعزيها غير خائفة من شيء عند استطلاع خفاياها ومكنونات صدرها

ولم تكن كرستيانه ممن اذا اؤتمن على السر تفنن في وصف الداء وبيان النقائص دون ان يسعى في ملافاتها فكان شره اكثر من خيره . بل كانت حزومة بصيرة بعواقب الامور معلقة الارادة فضلاً عما عُرفت به من التفاني في محبة القريب . فاستعانت بالله وبشفاعة مريم العذراء التي كانت من المتعبدات لها . فوجهت افكارها وصرفت عنايتها الى ريموندة واحبتها لانها احبت نسيبها جان وسألته تعالى ان يكلل محبة هذين القلبين الطاهرة باكليل النجاح

فلا عجب اذا ركنت ريموندة الى كرستيانه الصادقة الطوية التي عزمت على اصلاحها دون ان تمس كرامتها او تجرح عواطفها بخشن الكلام فتجعلها كما وعدت اقرب الى الكمال

على ان هذه المهمة مع سهولتها تقتضي وقتاً طويلاً ولهذا اوعزت كرستيانه الى جان بالسفر الى الولايات المتحدة رجاء ان

يعود منها متغيراً في صفاته ومزاياه وافكاره. واتت بريموندة الى بيتها وكانت تعاملها معاملة الشقيقة لشقيقتها. ومن الامور المستظرفة رؤية امرأة تأمر وتنهي امرأة غيرها لا سيما اذا كانت الآمرة رقيقة الشعور حرة الضمير مهذبة الاخلاق. تلك هي المهمة التي تولتها الكونتة كرستيانه في غياب المركيز الشاب

ومع ان ريموندة نشأت تحت ناظرة اب عاقل لم تكن تفهم فضل حنو الام ومحبتها. ولما كانت تعودت سماع كلمات المداهنة والتمليق والاكرام لسبب غناها وجمالها لم تدرِ معنى التهذيب فكانت على نوع ما همجية في تمدنها كما كان جان همجياً في عزلته

وكانت لاول عهدها بالكونتة غير مسرورة مما تراه في منزل الكونت ده شازه من البساطة البعيدة عن كل تكلف والدقة في مراعاة الوقت واجراء اشغال البيت اليومية. كل هذا رأته غريباً كما يستغرب الانسان اول مرة امثولة في لغة اجنبية. وقد اعجبها كثيراً فكاهات الكونت ونوادره الظريفة وكانت توهمت لاول عهدها به انه كغيره من الاشراف الذين قرأت عنهم او عاشرتهم في باريس اولئك الذين القابهم تجعل الوصول اليهم بعيد المنال. فان هذا الرجل العريق النسب الحائز على رتبة كولونل في الجندية لم يكن يفتخر لا باصله ولا بفعله بل كان رجل صيد تراه ابداً

طلق المحيا بشوشاً يمزح ويضحك ويقهقه لا يرى في ذلك عيباً ولا عاراً

ولم يمضِ على ريموندو وقت طويل حتى لم يعد يلذ لها الا ان تسمع اغاني الكونت المختصة بالصيد او تراه يشتم كلابه اذا نبحت وصاحت عند مروره بقربها

اما الكونت فقد احب الفتاة واعجب كثيراً بلطف اخلاقها وسلامة طويتها. وقد دهشت زوجته لصحة حكمه فيها لانه بعد رجوع ريموندو الى الليزارديار ذات ليلة قال لزوجته:

هكذا قرّ رأيك على ان تكون ريموندو زوجةً لجان

فبغتت الكونتة وقالت: عجبي كيف عرفت هذا

- ان تخميناتي لا تكذب ودايماً اخمن ما هو حسن

- حسناً وما قولك بعملي هذا

- حسن جداً لانك لا تفعلين الا الجميل من الاعمال

فسرت الكونتة لموافقة زوجها لها وواصلت العمل بسكينة وعزم لا يعرفان الملل. فكانت تذهب بريموندو ومدلين كل يوم يتنقلنَ من كوخ الى كوخ لعيادة المرضى وزيارة المساكين

وكانت ريموندو محسنة لكن احسانها كان رسمياً لانها كل سنة كانت تسلم الى كاهن الرعية في باريس وتور مبلغاً من المال فيرتاح ضميرها ولا تعود تفكر في هذا الشأن لاعتقادها ان

انكاهن يتولى الاحسان بنفسه ويوزع المال على الفقراء والمعوزين

اما كرستيانه التي كانت تفهم الاحسان بغير هذا المعنى فقالت: لا يكفي ان نوزع الحسنات او نكلف الغير بتوزيعها بل علينا ان نتفقد المرضى والمساكين لنقف بنفسنا على شقائهم

وعليه فان هذه المحسنة الفاضلة قد جعلت في قصرها صيدلية صغيرة كانت تتولى تركيب الادوية فيها بنفسها بكل دراية وكان لها مع جهلها الطب علم باستعمال الادوية اخذته عنها ريموندة ففاقتها في هذا العمل لذكائها واجتهادها. وكانت اذا سقط ولد من شجرة تجبر كسره بكل مهارة فكان لها بهذا العمل الشريف فخر يفوق اعطاء الاوامر للخدم في منزل ابيها

وكم كان فرح هؤلاء الممرضات الثلاث بعد رجوعهن من عيادة المرضى اذ يغيرن اثوابهن ويتزعن احذيتهن التي بلها المطر ويجلسن الى مائدة الطعام ووجوههن تطفح بشرًا وسرورًا ولا حديث لهن الا عن شيخ مريض او عجوز فقيرة

واتفق ان فتىً اسمه جان لا يتجاوز الخمسة عشر ربيعاً سقط لنكد طالعه بينما كان يرد ثورًا الى حظيرته وكسر ساعده. فاسرعت ريموندة اليه واخذت تعالجه بلطف ومحبة حتى اذا تم له الشفاء قال والدمع ملء عينيه بكل بساطة: انني احبك يا سيدتي كما يحب الاخ اخته. ولم تكتفِ ريموندة بهذا بل ارسلته لما

رأت فيه من النجابة الى كلية سومر وكلفت احد الكهنة الافاضل ان ينفق على تدريسه النفقات اللازمة فنبغ الفتى في العلوم ودرس الحقوق في باريس وصار فيما بعد من ابرع المحامين . وبهذا ادركت ريموندہ معنى الاحسان الحقيقي

وكان لم يزل فيها نقص اخر وهو قلة التقوى والفتور في العبادة . لانها وان كانت لا تقصر في حضور القداس كل يوم احد في كنيسة المجدلية مدة اقامتها في باريس وحضور كل عظة يلفظها الخطيب في كنيسة نوتردام فقد كان هذا العمل من قبيل العادة فقط والظهور امام الناس بمجالي العظمة والمجد الفارغ والتزيي بابهى زينة واخر زي

اما الكونتة فكانت تنظر الى الديانة من وجهها الحقيقي وترى ممارستها على غير هذه الصورة . ولم ترد وضع هذه المسئلة موضع البحث بل ارادت ان ترشد ريموندہ ارشاداً عملياً لا نظرياً وتقدم لها بنفسها قدوة دون ان تخاطبها بشيء من ذلك

ففي قداس نهار الاحد ظهرت ريموندہ باجلى مظاهر الزينة اذ ارتدت افخر الثياب وتحلت باثمن الحلى بينما ان الكونتة وابنتها كانتا بلباس بسيط محتشم من القماش الذي تلبسه العامة من الناس فتوجهت انظار الحضور الى ريموندہ حتى اصبحت في حيرة من امرها وزادت حيرة لما قالت لها كرستيانه بعد رجوعهن : ان زيكِ العجيب

قد فتن قلوب الناس حتى لم يعودوا يلتفتون الي ولا الى مدلين ولسوف احاول الظهور بمظهر احسن في الاحد المقبل

ولما كان صباح الاحد لبست ريموندە ثوباً بسيطاً ابيض كانت اوعزت الى مربيتها ان تصنعه لها في خلال ذلك الاسبوع

وقد تنبهت كرستيانه لخصلة رأتها في ريموندە وهي حب الانتقاد بغير اعتدال اذ كانت تندد بهفوات بعض النساء قبل الوقوف على الحقيقة . فارادت الكونتة تقويمها بطريقة لطيفة فاستطردت الحديث ذات يوم الى ذكر بعض السيدات المشهورات

قالت : ارغب اليك يا ريموندە ان ترافقيني مساء الخميس الاتي الى حضور ليلة ساهرة سوف تحييها زوجة الجنرال في تور حيث ينبغي لي ان امثل دوراً مهماً واحتاج الى مساعدتك

— وما هو يا ترى

— لا ريب انك سمعت بعقيلة لويس نستيم من تور

— نعم وسمعت باحاديثها الغرامية التي شاعت في السنة المنصرمة

— ان ذلك كله كان محض افتراء ووشاية لانني وقفت اخراً على حجج راهنة تثبت انها براء مما اتهمت به وان نفسي على سرعة تصديقي تلك التهمة . ولويس المذكور من اعز الاصدقاء لنا . ولما كنت منظورة في هذه الجهات ولي بعض التأثير في الهيئة

الاجتماعية ورآني الناس انقطعت عن زيارة عقيلة نستيم تجنبوا هم ايضاً معاشرتها ونبذوها نبذ النواة. فيجب اذاً ان اكفر عن هذا الذنب واعمل على ما فيه راحة لضميري. واعلمي انه لا يكفي الاعتراف بالذنب في مثل هذه الحوادث بل يجب التعويض فاسمعي لاخبرك بما عزمت على فعله. انني سوف اكتب الى زوجة الجنرال بانني اريد ان اعرفها باحدى صديقاتي القديمات واكتب الى لويس ليبلغ زوجته حتى تكون على استعداد للذهاب برفقتي في تلك الليلة الراقصة حيث اتكلم جهاراً بما يناسب المقام

فقالت ريموندة. ان عملك هذا غاية في الاهمية وجدير بكل ثناء.

- ليس افضل من قضاء مثل هذه الواجبات نحو القريب عملاً بما يفرضه الدين المسيحي. ولقد كنت فيما مضى اشدد النكير في الحكم على بعض النساء غير ذاكرة القول المأثور: ان نقائصنا منا وفضائلنا فضل من الله

وذهبت كرستيانه في الليلة المعينة ومعها ريموندة وعقيلة نستيم التي امسكتها بيدها ومشت بها بين تلك الجماهير الذين كانوا يرشقونها بسهام الالحاظ وقدمتها الى زوجة الجنرال قائلة: انني اقدم لك عقيلة نستيم اعز صديقاتي واكرمهن واكثرهن عندي مكانة واعتباراً

وقد كانت هذه العبارة كافية. لان شهرة الكونتة ده شازه عظيمة وسمعتها كالمسك. فادّت بحق عقيلة نستيم شهادة حسية لدى جمهور المدعوين الذين حنوا الرؤوس اعتبارًا واحتراماً عند ما سمعوا ثناء الكونتة وتقريظها. وقدم الجنرال ذراعه لعقيلة نستيم لترقص معه وتاكدت كرستيانه تلك الليلة ان هذه الحادثة كفت ريموندە مؤونة التعليم فرجعت هذه عن هجو الغير وانتقاده دون تحقيق

وبقي في ريموندە خصلة مذمومة وهي تهافتها على مطالعة كل ما يقع تحت يدها من الكتب: تواريخ. رحلات. انتقاد. شعر. روايات الى غير ذلك. فاتسعت معارفها بهذه المواضيع لكن هذه المعارف كانت مشتتة لا رابط يربطها ولا نظام يجمعها

والذي خافته كرستيانه هو ميل ريموندە وولعها الشديد بالروايات التي هي قوة شيطانية تفاقم شرها في عصرنا هذا. ولا نعني بهذا تلك الكتب التي عيوبها الفاضحة ظاهرة في كل كلمة من كلماتها بل نريد تلك الروايات التي تتستر بستار الفضيلة والصدق فيكون ظاهرها لهوًا وباطنها سماً قاتلًا وكثيرًا ما يتيه قارئها في بيداء الضلال

فاذا طالعها من يجهلها ورأى فيها ما يحمر له الوجه خجلًا ويخجل من قرأته امام الناس اتى بها حجرته يطالعها على انفراد

وهناك الخطر العظيم والطامة الكبرى لان الشيطان يجد سبيلًا الى الدخول فيوسوس للمطالع الشر ويحلل له المحرمات اذ قد صادف منه قلباً خالياً فتمكن . ولا دواء لهذا الداء سوى قراءة الروايات جهرًا أمام الناس

وعليه فان الكونتـــة طلبت الى ريونده ان تقرأ لها الروايات التي كانت وردتها حديثًا من باريس بحجة ضعف بصرها . فاذعنت الفتاة واخذت اول رواية ولكنها ما كادت تتقدم قليلًا في القراءة حتى توقفت فجأة وقد بان في وجهها الاضطراب وقالت : هذه يجب ان ترمى

فقالت الكونتة . نعم : ضعيها جانباً وخذي غيرها . وهكـذا صار انتقاء الكتب المهمة وانتخاب المهذب منها ورويدًا اخذت ريونده تستعمل هذه الطريقـــة في انتخاب الكتب المفيـــدة التي تتضمن مبادي الخير والدين والفضيلة

١٨

تبادل الزهور

في صبـــاح ذات يوم ورد من جان رقيم باسم كرستيـــانه هذا نصه :

عن نياغرا في ١٥ حزيران سنة ١٨٦٩

نسيبتي العزيزة

لقد اجريت كلما تشتهين وها اني مقدم برفقة هـذا الرقيم ضمة زهر من فوق ضريح جامس ابوت بطلك العجيب والى الان لم افهم سبب ارسالك اياي الى اميركا وكيف ان هذا السفر يفيدني في استرجاع الليزارديار قصري المحبوب. ولعمري ان قبضة المالكة المالية قوية وساعدها من حديد وان كان ناصع البياض. اما انا فقـد امتثلت اشارتك كما امتثالها دائماً غير نادم على مـا فعلت. ولقد كان يخيل الي قبل سفري امور كثيرة من جهة اميركا صرت احسبها الان اوهاماً اذ تأكدت ان ظرافة اوربة وحركة اشغالها وتهذيب شعبهـا لا توجد في اميركا. لكني ارى نفسي في وسط شعب عظيم مشهور ويعجبني من هذا الشعب مزية ممدوحـة عدهـا غيري مذمومة وهي الاستقلال في الصفـات. والارجح ان مكروب هذه العلة موجود فيّ. واعترف لك انني لو لم اكن ملكياً في فرنسة الكهلـة لاحببت ان اكون جمهورياً في اميركا الفتـاة ولسوف اشرح لك هـذا كله عند عودتي

ان غيظي من المالكة الحالية يزيدني غيظاً من بلاد ابصرت فيهـا النور وكلما زدت تفكراً بهذا زدت جهلاً لاصرار الانسة ديزورم على رفض طلبي مع انها لا ترد طلب اي كان من الخلائق

فقد ادركت اذاً انها تكرهني ولا وفاق بيننا الى الابد. ولا عجب فان ابنة الحضارة الجميلة تشعر باحتقار ابن البداوة الذي هو انا. وسأبقى على ما انا عليه الى ما شاء الله

انني اليوم في قلب بعض غابات كندا وقد لقيت في شيكاغو يوناثان مولر المثري الاميركي الذي دفع مبلغاً كبيراً من المال ثمن صورة صيد الخنزير. وقد شاد قصراً فخيماً وطلب اليَّ ان ازينه بالرسوم اللازمة وهو يؤدي لي الثمن الذي اطلبه وسوف ارسم له مناظر البلاد المجاورة مثل شلالات نياغرا والهورس شو وجزيرة اري وضريح جامس ابوت والثلاث اخوات وغيرها من المشاهد العجيبة. فيزين بها غرفة الطعام وقاعة الاستقبال والمكتبة وهذا يقتضي عمل ثلاثة او اربعة اشهر. واعلمي ان الاميركان ينفقون على هذه الاعمال بكرم ملوكي وسخاء عجيب. ومهما يكن من الامر فلا يخيل لك بان محبة المال والتجارة قد استملكتني حتى اعرض عن الصناعة. بل انني اذا كنت افكر في جمع المال فذلك لانني ارسلت الاوامر اللازمة لوكيلي كي يبتاع لي حقل لاماري بناء على استحسان الكونت ورغبته في ان يكون الصياد الوحيد. وقد عقدت العزيمة على بناء ليزارديار آخر في قلب هذه البلاد على الطراز القديم انقل اليه رفات والديَّ العزيزين واظن ان ريموندو لا ترد هذا الطلب والا كانت بغير شعور. وسوف اشتري الاراضي المجاورة لهذا

القصر فازيد ميراث اجدادي زيادة معتبرة وبذلك ابلغ غاية تعجز عن ادراكها هذه الفتاة ولو ملكت اراضي تورين باسرها

والان الى اللقاء يا نسيبتي العزيزة. اهدي خالص محبتي لمدلين الصغيرة التي سوف اتحفها بلعبة من العاب الهنود وغيرها. بلغي ليوبولد انني اصطدت غزالاً على الصخور. ولا تنسي المنفي الذي يفتكر ابداً بك

جان

ده ليزارديار

وكانت ريونده في مرسيلي ساعة وصول هذا الكتاب فاستدلت من هيئته وكتابة عنوانه انه من جان. ولم ترد التحقيق بل اكتفت بالنظر الى وجه كرستيانه وهي تقرأ جملة بعد جملة. وعند بعد تأمل قليل قدمت لها الرقيم. فتناولته وكانت في اثناء قراءته تبتسم حيناً وتحمر خجلاً حيناً اخر. واخيراً قالت: انه يعرفني حق معرفة واني اعجب من ان الرجال كلهم يصدق حكمهم في النساء

قالت كرستيانه. اذا لم يكن كلهم فمعظمهم يصدق في الحكم. ثم امسكتا عن الحديث في هذه المسئلة لان الكونتة كانت تتحاشى الخوض فيه بحضور مدلين التي كانت اذا سمعت والدتها تتكلم بصوت منخفض تسألها: ماذا تقولين عن جان يا والدتي

ولما كان اليوم الثاني كتبت كرستيانه الرقيم الاتي:

عن الليزارديار في ٣٠ حزيران سنة ١٨٦٩

ابن خالي العزيز

اكتب اليك جواب رقيمك وانا في قصر الليزارديار في زيارة الانسة ديزورم. واني اغتنم فرصة خروجها للنزهة مع ابيها لابعث اليك بهذه السطور

يظهر من كلامك انك صرت وطنياً من اميركا وتشتغل لاجل جمهوريين يا ابن رجال فرنسة العظام لتتمكن من العود الى بلادك وانت السيد الرفيع المقام المالك ضفاف المولن وكل ما حوله. ولا عجب اذا زينت شعار اجدادك بماء الذهب. ولا اظن ان الذي يشغل افكارك الان رسوم المثري الاميركي. بل هنالك شغل اخر. فمن يدري يا ترى اذا كنت لا تأتي باحدى الاوانس الاميركيات الجميلات ومعهما الملايين من الليرات. واني اراها طويلة رقيقة القوام. لكني اسمع الان صوتاً يدل على رجوع ريموندہ مع والدها فاستودعك الله واهديك اشواق الجميع وتحياتهم

ابنة عمتك

كرستيانه ده شازه

صح: قبل ان اختم غلاف رقيمي اضع فيه زهرة من فوق ضريح والدتك المحبوبة في مقابلة ضمة الزهر التي بعثت بها الي.

وكلما زرت ريموندە ادخل المعبد وارى على ضريح والدتك باقة جديدة من الزهور البرّية

بعد مضي شهر من الزمان اخذت كرستيانه الجواب الاتي :

عن نياغرا في ١٧ تموز سنة ١٨٦٩

عزيزتي كرستيانه

باركك الله ايتها النسيبة على الفكر الصائب وهو ارسال تلك الزهرة الصغيرة التي قطعت الاتلانتيك الواسع وجاءت تذكرني بوالدتي المحبوبة. فقد قبلتها وغسلتها بدموعي. ومن لي بان اكافئك على هذه المحبة. اما من جهة الانسة ريموندە فاكون ناكر الجميل اذا لم اقم بواجب شكرها على ما فعلته لذكر والدتي بعد ما اظهرته لي من القسوة

انك تداعبيني بشأن العادة الاميركية فاقول : انه وان كانت الاميركيات موصوفات بالجمال واللطف فقد وطنت النفس — ان انا تزوجت — على الاقتران بفتاة فرنساوية فقيرة عريقة النسب. على ان هذا الفكر بعيد مني الان فان مضيفي يوناثان مولر قد اختصني بتجارة حسنة وهي ان يضع كل ما اكسبه من التصوير في معمل اسلحة له معظم رأس ماله وارباح المعمل مضمونة . اكتبي لي دائماً واكثري من ذكر نسيبي الكونت رب الصيد وذكر العزيزة مدلين. ان الاميركان توصلوا بحذقهم الى

اختراع الة تمكنني من سماع صوتك ولكن هيهات ان يكتفي القلب بها ودمت

لابن خالك

جان

مرت الايام والاشهر وريموندة وكرستيانه لا ينفكان عن تبادل الزيارات ومحبتهما تزيد مع الايام وقد استأذنت ريموندة والدها في ان تقضي في مرسيلي ايام الشتاء لانها رأت ان عيشة الخلاء حيث الهدوء والراحة افضل لها من عيشة باريس والطواف في احيائها. ولم تكن تترك كرستيانه الا لتذهب الى الايزارديار حيث تتعهد زهور الضريح العزيز. ولم يكن لها سوى توقع تحارير جان الواردة تباعاً وزيارة الفقراء من فلاحي تلك الناحية والقلق لتأخر الكونت في الصيد. واستماع اسئلة مدلين الدالة على نجابة وزكاء يزيدان يوماً فيوماً

اما الكونتة فقد اوجدت عملاً اسمى واهم تلهو به تلميذتها ريموندة. وهو انها جمعت في قصرها عدداً من حدثات القرية فكانت تلقي عليهن فضلاً عما يدرّس عادة في المكاتب دروساً ابتدائية في الرسم وتراجم مشاهير الكتاب وتبين لهن جمال الشعر وبديع معانيه فكان لها تعزية بما تلقيه من بذور المعارف في القلوب الطاهرة

*

وفيما كانت ذات يوم من ايام ايار الجميلة تشرح لتلامذتها مقالاً لنيومان الشهير رأت كلوديون الذي كان يربض عادة عند قدميها قد ارهف اذنيه بغتة ونبح نبحة ثم هجم الى الباب وما لبثت ان سمعت صوتاً يقول . اهلاً بالاميركي ! وكان المتكلم الكونت ده شازه يرحب بجان بصوته الجهوري وبعد قليل دخل جان تصحبه كرستيانه ومدلين

فبغتت ريموندة لقدوم جان على غير موعد وامتقع لونها . فوقفت هنيهة صامتة لكنها تغلبت على عواطفها ودنت من جان ومدت يدها لمصافحته وقالت بلهجة لطيفة : اني اسفة يا سيدي المركيز لكوني لا ازال اتصرف بملكك

ففتح جان ذخيرة كانت معلقة في سلسلة ساعته وقال لها : انظري الى هذه الذخيرة واسألي قلبك اذا كنت اطلب اكثر من هذا

فاخذت الذخيرة وابتسمت ابتسامة لطيفة اذ رأت داخل الذخيرة زهرة برية يابسة . ومع ما تظاهر به جان من البشاشة لم يخف عنها ما كان في كلامه من التأثر

ولم يتسنَّ للاثنين اطالة الحديث لسبب جلبة البنات اللواتي تفرقن في كل جهة حتى اذا انصرفن صاح الكونت : قوموا بنا نصعد الى القصر ونذبح العجل المسمن . . .

فقاموا جميعاً وكان كلوديون يتبع ريموندہ لانه بعد تأدية واجب السلام لسيده فضل البقاء مع سيدته الجديدة

وقد أُعجب جان ببساطة لبس ريموندہ وظرافته لانها كانت لابسة ثوباً بسيطاً ابيض وعلى عنقها شال من الحرير الازرق وعلى رأسها قبعة قش لها شريطة حرير كلون الشال قد تدلت الى الارض فقال في نفسه: لا جرم ان منظرها الان اجمل كثيرًا منه وهي في ملابسها الباريسية الفاخرة

وما كان اشد تعجبه اذ رأى ريموندہ على المائدة تتكلم قليلًا بتأنٍ ولطف فرأى فيها هدوء الكونتة وبهجة مدلين. تنبه لهذا كله ولم يعرف له سبباً حتى جاءت مدلين بايضاحه. قالت:

هل عرفت يا عزيزي جان ان الانسة ريموندہ كانت عندنا كل هذا الشتاء. وقد سررنا بما كانت تقصه علينا من النوادر الظريفة والاخبار المفيدة وقد قامت بخدمة الشيخ بيرارد مدة مرضه الشديد. وقد صممنا على القيام بتمثيل رواية لطيفة لكننا انتظرنا رجوعك بالسلامة

— اصحيح ما تقولين

— نعم ولي فيها دور ظريف للغاية. ولا بد لي من ان اخبر بان والدتي وريموندہ كانتا تتحادثان ذات يوم سرًا فسمعت ريموندہ تقول ان ابن خالك جان يبغضني. فحاولت والدتي اقناعها بانك

لا تبغضها فلم تقتنع . فلأي سبب تبغضها . لا يحسن ذلك بك ولا اريده لك

فخجل جان وامتقع لونه ولم يجد لذلك جواباً . اما وجه ريموندہ فصار قرمزي اللون وللحال قامت كرستيانه وتبعها الجميع الى القاعة وهناك قدمت ريموندہ ومدلين القهوة للحضور . واما قدمتها ريموندہ لجان قدمت مدلين السكر في صندوق لطيف بيد مرتجفة واغتنمت هذه الفرصة وقالت :

آه يا جان اني لن اتكلم ولا كلمة بعد لان والدتي وبختني ونحن صاعدون على السلم لانني تكلمت على المائدة بما لا يزوم له

فلم يمالك جان وريمومنده من الضحك

وبعد القهوة اشارت الكونتـــة الى جان ومدلين وريموندہ فجلسوا الى منضدة واستلقى الكونت على كرسي كبير طلباً للنوم وقالت كرستيانه :

لقد وعدنا بنات القرية باقامة حفلة سرور في القصر مكافأة على اجتهادهن وهذه كما لا يخفى عليك عادة قديمة في اسرتنا وليوبولد مولع بها خصوصاً اذا كان له فيها دور مهم . وسوف ندعو لحضورها اهل القرية والقصور المجاورة فلا يقـــل عدد المدعوين عن الثلاثماية وكان همنا منصرفاً الى ايجـاد رواية مناسبة حتى وجدنا ضالتنـــا المنشودة وهي بالحقيقة من اجود الروايات

قال اهي تأليف الفرد ده موسه

— لا . انها من تأليف اوكتاف فولت وتدعى الجن ولا غرو اذا أعجبت بها فهي هزلية مفجعة فيها خمسة ممثلين . فليوبولد يأخذ دور فرنسيس الخادم لماسبته له اما دور الفيكونت هنري فيقوم بتمثيله نسيبك ده كمبري . ودور الفلاحة البريطانية الصغيرة تمثله مدلين التي تظهر في غاية الجمال على مرسح التمثيل واما اهم دور فهو دور هنري ده كومن وهو يناسبك يا عزيزي جان كل المناسبة كأن الطبيعة اختارتك له لان فيه سرًا جميلًا انت اولى به واليق

قال جان . ولكني لم ازاول فن التمثيل من قبل

— وهذا اجمل فان فيك استعدادًا لهذا الفن

— واني استحي كثيرًا

— وهذا احسن لان الحياء لازم في دورك . على انني ما جئت الان لافاوضك بل لامرك فعليك الطاعة

— وانا اطيع لكن الا يوجد سوى دور واحد للنساء

— واحد فقط لكنه جميل جدًا . امرأة عجوز وليست بعجوز لانها تظهر اولاً بضفائر بيضاء ثم تنقلب صبية بشعرها الذهبي لمزدان بالازهار البرية ويكون ثوبها ابيض والعابها العاب جنية نراها في الحكايات والاساطير واسمها الاول اورره والاسم

الثاني اثول وانني احب هذا الدور حباً عظيماً

— اذن سوف تنجحين في تمثيله

— لا لعمري فانه لا يناسبني لاسباب منها انني سمراء والجنية اثول شقراء وهي بريطانية من سكان غابات بروكلاند

— اذاً لقد وقع انتخابك على ممثلة موافقة

— انني لم اتعب في التفتيش والبحث. والممثلة الى جانبي وهي الانسة ريموندە

فصاح الكونت من كرسيه. نعم هي الانسة ريموندە فهل عندك ما يقال بشأنها؟ اليست شقراء اللون يا مولاي المركيز. فاذهب الان وطالع دورك لاول مرة

وناولت كرستيانه الرواية لجان وما كادت الساعة تدق عشرة حتى تفرقوا. وقبل ان ينصرف جان دعاه الكونت لتفقد الرسوم التي رسمها في القاعة فرآها لا تزال على رونقها وبهائها. وانقلب راجعاً فرأى عند باب غرفة مدلين المحاذية لغرفة ريموندە سلة قش مطرزة بخيوط ذات الوان جميلة وقد ربض كلوديون في وسطها وهو ينظر الى جان باضطراب وتردّد. فتقدمت ريموندە وقالت. صفحاً يا سيدي المركيز انني اعتنيت بكلوديون مدة غيابك او بالحري ان كلوديون اعتنى بي واني اعيده اليك فاذهب يا كلوديون الى سيدك

فلم يتحرك كلوديون من مكانه بل تمطى ناظراً الى غرفة ريموندہ فقال جان. أرأيت يا سيدتي كيف تغير كلوديون عن محبتي فلا بأس احتفظي به فانا اهبك اياه

قالت. قد قبلت هبتك ويمكنك ان تستعيره كلما شئت. ونظر اليها الكلب بعين شكرى ثم القى برأسهِ على زاوية ناعمة في السلة ونام. وذهبت ريموندہ ومدلين الى سريريهما بعد ان ودعتا اهل المنزل وهكذا فعل جان وقام يريد مخدعه في القصر الصغير والافكار تتنازعه والهواجس تتقسمهُ وكان يقول في نفسه: ها قد اخذت كلبي كما اخذت قصري ولا تلبث ان تسلبني محبة انسبائي لانها اصبحت كعضو منهم كل هذا يجري بطريقة عجيبة حتى انها تعرف افكاري ومبادي كما تبين من كلام مدلين على انني لست بآسفٍ على هذا ولئن خضع الكل لها فيكفيني انني اوضحت لها عدم استيائي منها حين أريتها الزهرة البرية المحفوظة في الذخيرة

وقد وجد جان خادمه بيرارد بانتظاره ولما رآه قال: آه يا بيرارد اكنت مريضاً في اثناء غيابي

— نعم يا مولاي المركيز لقد مرضت مرضاً شديداً لكنني الان احسن كثيراً بفضل الانسة ريموندہ

— وقد بلغني انها بذلت كل عناية في تمريضك

- لعموي انهـا اشبه براهبة من راهبات المحبة بـل انها ملاك سماوي

- لا ريب في ذلك. وكان استحسانه هذا لا يخلو من نظر. ثم دخل مخدعه واخذ يطالع رواية الجن

١٩

التمثيل

وبعد مضي يومـين بدئ بالتمرين في تمثيل رواية الجن ولا شيء ادعى الى السرور كتمثيل يقوم به قوم لم يزاولوه وربما فاقوا به امهر الممثلين حتى تضرب ببعضهم الامثال

ولمـا كان الممثلون في مرسيلي لم يتعاطوا هذه المهنة اقتضى تمرينهم وقتاً طويلاً. ولحسن الطالع اتفق وجود عقيلة بارو وشقيقـة المسيو ديزورم وكانت في الستين سنًا ذات رقة واينـاس ولها الملم بفن التمثيل. فهذه وقع الاختيار عليها لتكون مديرة التمثيل ولما كانت جسيمة وضعوا لها كرسياً ضخمة امام المرسح الذي جعل في القاعة الكبرى فتجلس عندمـا يقرع الجرس المرة الاولى وعلى عينيهـا نظارتان وفي يدها كتاب مفتوح كأنها من اشهر اساتذة هذا الفن حتى اذا انتهى التمرين قالت : لا ارى احـداً منكم اجـاد في

التمثيل . وهذه العادة التي جرت عليها في تنشيط المشخصين لا تخلو من اهمية كما ستعلم

وكان المتمرنون يتقدمون تدريجاً في التمثيل تفادياً من تهكم معلمتهم وقد هنأت عقيلة بارو مدلين قائلة : ان مدلين اقل ملامة من البقية . وقالت ايضاً ان المسيو ده شازه لا يخلو من النجاح

وفي اليوم الثاني نطقت بحكم جديد قالت . ان الفيكونت يقوم مقام مولون لكنه بارد كالجليد . اما انت يا ريمونده فانك تحسنين النطق ولا تحسنين المشي ولا الجلوس ولا القيام . وانت يا مسيو ليزارديار فلا تحسن شيئاً البتة

اما جان فانه وان كان تعود سماع مثل هذا الكلام الذي يجري بين الاصحاب قد احمر خجلاً لاسباب اهمها : ان عقيلة بارو قبل ان تصدر بحق جان حكم الاعدام تواطأت مع ده كامبري على مداعبة نسيبه جان . وقد عرف القراء امر هذا الرجل وعرف جان انسه ولطف اخلاقه لكنه كان يكره وجوده عند صدور حكم عقيلة بارو

ولما كان جان مضطراً الى الانقياد لاوامر مديرة التمثيل فقد استغنم ده كمبري موقفه الحرج واراد مداعبته بملاحظات يبديها في خلال التمرين . ولو كانت كرستيانه او غيرها في مكان ريمونده لهان عليه الامر ولكن مداعبة ده كمبري لجان بحضور ريمونده

لا يرضى بها . غير ان تلك خصلة طبع عليها هذا الرجل لا يتركها كل ما سنحت الفرصة

وكان في رواية الجن قطعة شعرية تنشدها اورورة امام هنري ده كومون وهو مضطجع هذا معناهـا : جاء المساء . من هو النائم تحت السنديانة . هو روجر ضابط شاب . وكلاب صيده القويـة تتراكض حوله بين الاشجار

فلما بلغت ريموندە اخر هذه العبارة توقفت فقال ده كمبري ولكن هناك بيت ثالث بقي من الابيات الشعرية وتناول الرواية واخذ يقرأ فاسرعت الكونتة وكانت حاضرة اذ ذاك وقالت : من رأيي ان يصير اهمـال البيت الثالث لان البيتين يكفيـان لمقتضى الحال

فالتفت ده كمبري الى جـان كأنه يقول : لو كنت مكانك لاثرت بقاء البيت الثالث

وفي اخر الرواية تظهر اورورة بملابس جنية وبعد ان كانت عجوزاً شمطاء انقلبت الان غادة حسناء اختارتها عقيلة ده كومون عروساً لابنهـا والجنية اثول عملاً برأي اخيها اتخذت هذه الهيئة الجديـدة انفاذاً لمكيدة كادت بها الصبيـة المنازعة فحينما تظهر الجنية بمظهر الجمال يترامى هنري على قدميها طالباً عفوها . فجان ممثل دور هنري المذكور مس يد ريموندە فقط

فقال ده كمبري . ان المؤلف يضيف هـذا التنبيه . يجب على هنري ان يضع رأسه على يد الصبية اخفاء لتأثيراته . فلماذا ابطلتم ذلك

فاجابته الكونتة . هذا يلزم العمـل به على المرسح لا وقت التمرين

فحنى ده كمبري رأسه وسكت لكن لسان حاله كان يقول . لو كنت مكان جان لما ابقيت ذلك الى المرسح

ولما انتهى التمرين خرج جان مع كرستيانه الى شرفة القصر وقد ارتسمت في وجهه علائم الغم وقال : لقـد اصابت عقيلة بارو في ما قالت فلا يمكن ان اصير مشخصاً

قالت كرستيانه . لا تبالِ بقولها بل اجتهد ان تعرف دورك وتفهمـه واذا شئت فان ريموندـه تساعـدك في التمرين لان من الضروري ان تعرف دورك ايضاً بهـذه الطريقة وهي ان تدرسه معك

فتوقفت ريموندـه قليلاً لكن الكونتـة لم تترك لها مجالاً للتأمل بـل ناولتها الرواية وكانت مدبجـة بيراع اوكتاف فولت ليس فيها ما يخشى الاديب مطالعته بل كانت رقيقة العبارات موعبة معانٍ رائقة ومبادٍ سامية

فقرأت ريموندـه هذه الجملة من دور جان : « ان هـذا الاقرار

يحرق شفتيّ اني اكاد اصل الى حالة الجنون عند ما اقصد الوقوف على هـذا السر . فكوني مهما شئت فلا اجسر على القول انني احبك . . . ولكن ربما تغيرت الاحوال وكنت مدفوعاً حتى اصبح اهلاً لمحبتك . . نعم اني مقابلة لمعروفك اجعل حياتي الجديدة وقفاً على رضاكِ »

وكانت ريموندة تقرأ الكلام المقول عن لسان جـان وتقف بين كل عبارة من عباراته اكثر مما يشترطه مدير التمثيل . فقالت لها كرستيانه : انك بطيئة جـداً في القراءة يا ريموندة فاسمعي كيف اقرأ انا

وتناولت الكونتة الرواية واخذت تقرأ بنغمة لذيذة تناسب المقام ثم قالت : الان دورك يا جان

فاخذ جان الرواية واعاد قراءة ما تصعب عليه من العبارات فبانت عليه دلائل التقدم اذ اعطى هذه الفقرة : « فلا اجسر على القول انني احبك » نغمة تخالف نغمة السيدتين . وجرى التمرين على هذا المنوال مدة اسبوع الى ان صار جان يحسن دوره القاء وايماء وحق له ان يسمع تقريظ عقيلة بارو بهذه العبارة : ان المسيو ده ليزارديار احسن الجميع وامهرهم

اخيراً حان يوم التمثيـل وقد تناقلته الالسن وتحدث عنه سكان القصور المجاورة وعوّل اصدقاء الكونت والكونتـة على

الحضور باجمعهم تنشيطاً لهذا المشروع وبذل الكونت جهده في تزيين القصر وباحاته وجنينته بمصابيح بديعة الشكل احضرها من باريس

وما ازفت الساعة التاسعة من الليل حتى انقلب القصر شعلة من نور وكانت اشعة تلك الانوار تنعكس على ما حولها من الاشجار فيكون لها منظر يأخذ بالابصار حتى رآها الوفود من مكان بعيد

وكان المدعوون من الكثرة بحيث ان قاعة القصر وبهوه وباحاته ضاقت بهم على رحبها ومع هذا كان الجميع مسرورين ومخدّرات تور وماتس ونويانت تحلين بما شئن من ضروب الزينة دون خوف من الانتقاد مما جعلهن يتسامحن في تمثيل الشخصين الامر الذي لا يكون في المراسح العمومية حيث يشترك الحضور في التمثيل من حيث العواطف والافكار ويصبح الممثلون عرضة للانتقاد

ولم يسلم ممثلو روايتنا من بعض الانتقاد غير انه لحسن الحظ افتتح الرواية الكونت ده شازه فاسترعى الاسماع وتوجهت الى ده كمبري انظار السيدات نظراً لما كان عليه من اللطف والادب. اما مدلين التي كانت في ثوب فلاحة فقد ضجّ لها المتفرجون وصفقوا مراراً حتى كاد القصر يهتز طرباً وجذلاً . واما جان

وريموندہ فلم يستلفتوا الانظار بسهولة لان الظروف وقفت مع الحضور لمعاكستهما . ذلك لان جمال ريموندہ وغناها المفرط جعلا لها بين القوم حسادًا ومبغضين حتى الارشيدوقة دہ سابله التي كانت مدعوة فانها انتقدت الفتاة بهذه العبارة: اليس من الطياشة ان تقدم مثل هذه الانسة على التمثيل . وان تكن موصوفة باللطف والجمال

وهكذا فان جان لم يسلم من قوم يحسدونه سرًا على نهضته وسرعة تقدمه في الثروة حتى انه شعر هو وريموندہ بمعاكسة الحضور لهما لكنهما وطدا العزم على بلوغ النجاح اذ كانت تسري فيهما روح الفنون الجميلة

وما لبثت ريموندہ ان ابدت في بعض المواقف المهمة عنة وادبًا يندران في غيرها حتى لم يسع الحضور مع شدة معاكستهم الّا ان اقروا لها بالاجادة في الالقاء . وكانت عبارات الاستحسان والتنشيط ترد عليها من كل جانب واعترفت الارشيدوقة بان ريموندہ آية في الحسن والابداع حتى ان جان نفسه نسي وجود تلك الجماهير الغفيرة واطلق العنان لتصوراته فحملته الى ابعد ما يمكن تبعًا للموقف الذي كان فيه . وان ما كان يلقاه اولاً من اللوم والتعذير لعدم مهارته في التمثيل تغير اذ ذاك بالكلية وأصبح الشاب يتأثر كأنه يمثل شيئًا واقعيًا فادهش سامعيه من محبيه واعاديه

وطبقًا لاشارة مديرة الملعب وضع جان جبهته الملتهبة على يد

ريموندہ وما كاد يرفع رأسه وتقع العين على العين حتى شعر بان ضربات قلبه تدق ولمع ذلك البرق الاثيري الذي يمر بين روح وروح

على انه اذا كان مؤلف هذه الرواية اوكتاف فولت فمؤلف هذا الاستدراج او حسن التخلص . هو كرستيانه ده شازه . فقد جلست هذه المرأة الحكيمة على المقعد الاول تراقب كل حركة تجري على الملعب وهي وحدها لحظت تبادل نظرات الحب بين جان وريموندہ حتى اذا انتهى التشخيص تقدم الاثنان اليها يسألانها بكل حرية اذا كانت راضية عنهما فابتسمت لهما بلطفها وحنوها المعهودين واجابت :نعم يا ولدي اني راضية تمام الرضى

وتفرق القوم بعد التمثيل يتفرجون في جوانب القصر على الالعاب النارية ثم اقاموا حفلة رقص حتى اذا جاء وقت العشاء جلسوا الى مائدة انيقة ولم ينتهوا من الطعام حتى تبلج وجه الصباح ولم يفرغ اهل القصر من وداع المدعوين الا عند ما طلعت الغزالة من وراء التلال

وقد اذن المسيو ديزورم لابنته ريموندہ بعد الحاح كرستيانه الشديد في البقاء هناك لا سيما بعد ما لقيته تلك الليلة من العناء غير انه اشترط عليها انه عند ما تعود ابنته الى منزلها في بروبار يرافقها كل من في القصر . فقبل الجميع الدعوة بسرور

ولما لم يبق في القصر الا اهله قدم الكونت مع ما كان عليه من التعب هذه النصيحة قال : هلموا بنا يا اولادي الاعزاء نتلو صلاتنا وننام الى وقت الغداء

اما جان فانه قبل ذهابه الى القصر الصغير اخذ يطوف من غرفة الى غرفة كالقائد الذي يتفقد معسكره بعد انتصاره مسروراً بعمله حتى وجد نفسه على باب معبد القصر الذي كان مفتوحاً قليلاً . فدخل بكل هدوء واحترام غير انه توقف اذ شاهد ريموندة جاثية عند درج الهيكل الصغير فلم يتحرك مخافة ازعاجها . لكنه بعواطف لا يمكن التعبير عنها اخذ ينظر تارة الى صورة العذراء المرتفعة فوق الهيكل وطوراً الى الفتاة المتوسلة الى ام المحبة الجميلة التي تساعد المحبين كما تساعد الحزان والبائسين . ثم قام بكل سكينة وعاد من حيث اتى وهو يظن نفسه في حلم .

فهل رأته ريموندة او هل سمعته ؟ تلك مسئلة لا يمكننا الجواب عنها

٢٠

في بروبار

المحبون قسمان قسم يبوح بالهوى ويكشف اسراره لكل انسان عن سلامة طوية فلا يخفي صبابته ولا شوقه . وقسم يكتم هواه ولا يبوح بالحب غيرةً وحرصاً على افكاره واحلامه

حتى انه لا يبوح بها لاعز الناس عنده واقربهم مودة اليه

فجان ده ليزارديار كان من القسم الثاني لانه مع ما كانت عليه ابنة عمته كرستيانه من الدهاء والعلم بالفراسة ذهب تعبها في كشف ما يكنه ضميره باطلاً وكانت كقابض الماء. فقد ابى الاقرار بحب كتمه حتى عن نفسه خوفاً واضطراباً ولكن المحبين لا يخفى على الناس امرهم مهما اجتهدوا في التستر

وقد صح عند كرستيانه بعد ما رأت من تغير هيئة جان انه محب وقالت في نفسها. لا شك انه يحب ريموندة ولكنه يحارب نفسه بنفسه ولعله يبقى على هذه الحال زماناً طويلاً

وكان الشاب حقيقة كما ظنت كرستيانه ولما كان لا يعرف بعد ما هو الحب وباي علامات يعرف الحب فكان يتساءل عما اذا كان ذلك الاضطراب الذي يشعر به حباً حقيقياً او لا ويقول لنفسه:

ترى هل احبها. ولماذا احبها اليس بيني وبينها موانع تجعلني لا احبها. وهل يحب الرجل امرأة لا تقابل حبه بالحب وكيف تحبني. ماذا فعلت معها الم اعاملها اولاً بالجفاء والقساوة. لله كيف تغيرت من ذاك الحين بعد تلك العظمة وذلك الكبر اللذين كانا فيها يوم نظرتها لاول مرة في الليزارديار. هذا كله فعلته كرستيانه. آه يا ابنة عمتي بل يا شقيقتي كرستيانه لقد ادركت الان انك فعلت كل هذا لاجلي. لكن بقي عليك امر لا اظنك تقدرين عليه

وهو ان تجعلي ريموندہ تحبني . لا انها لا تحبني لكني لا اظنها تبغضني . على ان شخصاً يريد الاقتران بفتاة لا يكفيه ان لا تبغضه . أأقترن بها ؟ هذا لا ارضى به ابداً فهي غنية جداً ويقال انها ابتاعت قصري . واذا داخلها فيما بعد ريب في ان حبي لها كان طمعاً بمال او رغبةً في جاه متّ ذليلاً

على ان جان لم يكن يتمادى بهذه الافكار اذ ان اعجابه المتأصل فيه بشرف حسبه ونسبه كان يقاوم حباً حديث النشأة فيا لله من تلك المبادئ التي كانت فيه . وكان يقول في نفسه :

ساكون اول من اقترن من اسرتنا بفتاة من غير الاشراف . ولكن هذا لا يهمني كثيراً ولقد انصف الامير كان في قلة اكتراثهم لهذه التقاليد والتعصبات التي فقدت عندنا مع هذا كثيراً من قوتها . لان شرف المرء الحقيقي يقوم بفعله اكثر منه باصله . فضلاً عن ان والد ريموندہ يحصل على لقب بارون ان اراد لماله في البلاد من المكانة والاعتبار على ان ذلك كله لا يهم لو كانت ريموندہ تحبني . اني ارى حبها لي مستحيلاً . ويا لله ما كان اجملها في اثواب التمثيل وما الذ صوتها الرخيم . لقد كان وقعه في اذني كوقع الموسيقى . وما كان ابهى وجهها وما احسن تصونها ووقارها . فلا عجب اذا احببتها . اهذا ما يسمونه حباً . نعم ينبغي ان يكون هو هو . اني اضعك من نفسي لعدم حبي الشعر الاشقر والعينين السوداوين .

وانها وان كانت غنية فسوف يأتي وقت اقدم لمركيزتي كل ما تطلبه المركيزات في العالم

وكان يقضي جان اوقاته هائماً وجلًا وهو بين الخوف والرجاء حتى كادت تبرحه الاشواق وتضنيه الصبابة خصوصاً بعد ان تركت ريمونده مرسيلي وذهبت الى بروبار استعداداً للدعوة التي اشرنا اليها

وفي اليوم المعين نهض الكونت وقرينته ومدلين وجان يريدون قصر ديزورم اجابة لدعوته ولم يكن جان وحده يتوقع ما يكون من هذه الدعوة بل ان كرستيانه كانت تخشى ان يغتنم الداعي هذه الفرصة فيظهر عظمة غناه. لكن ما لبث خوفها ان زال لان الأدبة كانت بسيطة للغاية. ودعا المسيو ديزورم ضيوفه الى النزهة في الحقل الذي كان العمل جارياً فيه بنشاط تحت مناظرة ولده راعول

وكان ديزورم كلفاً بالزراعة يسعى في تقدمها فاخذ يبين ما ينويه من الاصلاحات في ذلك الحقل والكونت ومن معه يصغون اليه وهم معجبون باعماله الزراعية ويستحسنون عمله الا جان فقال له: انني استحسن يا سيدي كل ما فعلته لكني اتأسف لقطعك اشجار الغابات العظيمة وجعلها مزدرعاً للشمندر. فالشمندر رمز المستقبل والسنديان رمز الماضي

قال ديزورم. هذا سؤال يلزمه جواب طويل لا نطيق معه الوقوف فهلموا بنا نجلس. لا اقول في ظل الاشجار التي لا ترون شيئاً منها في هذه البقعة بل في ظل حائط من حيطان الحقل

وبعد ان جلسوا استطرد ديزورم الكلام فقال: اننا نقطع اشجار السنديان مع الاسف لكننا قبل ان نقدم الانسان ظلاً يستظل به علينا ان نقدم لهُ خبزاً يقتات به. وشعب فرنسة آخذ كغيره في الازدياد والنماء. فاذا تركنا السنديان وغيره من الاشجار بدون قطع لا نعود نستغل كيلاً من الحنطة لكل فرنساوي. فنضطر الى المهاجرة مع اننا بحاجة شديدة كل وقت الى الرجال دفاعاً عن الوطن. فاليوم هو السادس عشر من شهر تموز سنة ١٨٧٠. ولعلنا نقدم غداً على حرب والحرب تتهددنا كل دقيقة

فقال ده شازه. اننا نذهب اذاً الى المانية كما فعل اباؤنا

قال ديزورم. اذا لم يأتِ الالمان الى فرنسة كما فعل اباؤهم. اقول هذا بالاسف. ومن نكد الطالع على فرنسة ان تكون ساحة قتال للشعوب

— ولماذا

— جوابي سيضحكك. فلقد كنت ايام الصبا متديناً وكنت اناظر اصحابي في الفلسفة ولا ازال اناظرهم في السياسة واوكد

لكم انني لست من الحزب الملكي ولا الامبراطوري ولا الجمهوري بل انا تدريجي اي ممن يعتقدون بتقدم الانسانية التدريجي وهو انتشار روح الله في قلب الانسان. واني احب المشتغلين في تقدم البشرية برفق ولطف واكره الراغبين التقدم بقوة وعنف. ولقد كان من سوء الحظ ان تلقى مقاليد الامور الى الفئة الثانية ومعلوم ان التمدن جاء من الشرق الى الغرب مغيرًا لكثير من الشرائع والعادات في البلدان التي مرّ بها. وكانت فرنسة اخر موقف من مواقف التمدن الاوربي من قبل ومن بعد. اما هذه المرة فقد اخطأ التمدن في طريقه ومهما يكن من الامر فان العيون ناظرة الينا والامال معقودة علينا فينبغي لنا ان ندافع عن انفسنا. لكن باي واسطة ؟ بواسطة بسيطة جدًا لكنها صعبة العمل وهي اتحاد الطبقات. ففي الولايات المتحدة لا صعوبة في ذلك. اما في اوربة ولا سيما في فرنسة فهي اصعب من نقل الجبال لانه كلما ارادت فرقة او جمعية قديمة تجديد امورها قام في وجهها عقبات وهي اعباء ماضيها الثقيل والخوف من مستقبلها لانها تخشى رد الفعل تخشى الثورة والانقلاب. ومن الحكمة والصواب منع وقوع كل انقلاب على الاطلاق حتى يتم لنا الفوز اخيرًا. لكن هذا الفوز يقوم بان يترك الاعيان التعصب والعامة البغض وهذا عمل يختص بالطبقة التي توفق بين الاعيان والعامة. واني اجتهد لاكون

من هذه الطبقة

وكان الجميع منصتين لهذا الخطاب ولم ينطق احد بكلمة سوى جان فقال: ولكني اخاف يا سيدي ان يلاقي اهل الصنائع من الطبقة المتوسطة صعوبات عظيمة في سبيل الاتحاد المطلوب

اجابه: هذا لا بد منه يا عزيزي المركيز . وللانتصار على هذه الصعوبات ارى ان يصير استخدام قوة اعظم واسمى من كل قوة يتوهمها البعض وهذه القوة العظمى هي الدين . واني اقر جهراً واعترف علانية بان الفتور في الدين قد تسرب اليَّ حيناً من الزمان ولكني بعد البحث في هذا الموضوع المهم صح عندي ان الدين الكاثوليكي مقدَّر لفرنسة لا بد منه وبه تسود الحرية والمساواة بين طبقات الشعب

وقد ارتاح جان الى حديث ديزورم كل الارتياح وفيما كان يريد ان يلقي عليه بعض الاسئلة اذا بخادم دخل عليهم وفي يده رسالة برقية ناولها لديزورم فقرأها واصفر لونه ثم التفت الى من حوله وقال: لم اكن اظن ان نبوءتي تتحقق بهذه السرعة فان فرنسة شهرت الحرب على بروسية

فصاح الكونت . الحرب ؟ اني مستعد لها ولسوف نغلب هؤلاء الالمان . فما قولك يا مسيو ديزورم

— لتكن هذه امانينا . اما اذا خسرنا في المواقع الاولى فتكون

الامـة مضطرة الى النهوض باجمعها لقتـال العدو: اشراف وصناع وفلاحون وعملة

— صدقت يا مسيو ديزورم

— اما انا فاني ذاهب للحال الى باريس لقضاء واجباتي واعود عند ما تسنح الفرصة. والان اني اكل اليكِ ياسيدتي الكونتة العناية بابنتي اذ كنتِ لها كالام الحنون وهي تحبك كثـيراً. واغرورقت عيناه عند هذا بالدموع

فقال جان. اذا شئت يا مولاي ذهبت معك الى باريس لاتطوع في الجيش

— كما تشاء يا عزيزي المركـيز وسوف اوصي بك صديقاً لي من عسكر الزواف

وفيما كان ديزورم يتأهب للسفر استأذن جان انسبـاءه في الذهاب فلم يعارضه احد منهم بهذا العمل. ولما تقدم الى ريمونـده ليودعها وقد علا وجهها الاصفرار وعرتها رجفة مدت يدها اليه ثم ارجعتها بلطف. واخيراً تمالكت ومدت يدهـا ثانية فاخذها جان وقد هدأ روعه وانحنى فوق تلك اليد اللطيفة وقبلها باحترام

لم تمضِ ساعة من الزمان حتى كان جان وديزورم على طريق باريس يسيران بسرعة عظيمة. وأخذت ريموندة برفقة اسرة ده شازه الى مرسيلي

٢١

الزواف

في اليوم الثاني من شهر كانون الثاني كان المتطوعون المعروفون بالزواف المباركين الذين دافعوا عن الكرسي الرسولي بدمائهم قد جعلوا مركزهم في مدينة ترمنير وانضم اليهم بعض طوابير من فرق مختلفة فوقفوا ينصتون الى اصوات المدافع وضجيج المعارك ويتأهبون للقتال. وكانت الفرق الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة من فيلق اللوار قد اشتبكت في معركة هائلة مع الباڤاريين والبروسيين بقيادة الدوق مكلن بورك يساعده البرنس فردريك شارل بعسكره وكانت الفرقة السابعة عشرة بقيادة الجنرال ده زون

فالى هذه الفرقة الاخيرة انضم المتطوعون من الزواف وكان بينهم اربعة من اصحابنا وهم ديزورم وولده راعول وده كبري والكونت ده شازه الذي كان بلباسه الرسمي الخاص برتبة نائب وهي الرتبة التي لم يرضَ سواها من الرتب العسكرية. اما الثلاثة الاولون فكانوا انفارًا

وبينا كان صوت المدفع يدوي كالرعد على مقربة منهم كان الاربعة يتحادثون كانهم في قصر بروبار او في مرسيلي ولم يكن

ديزورم وولده خاليين من الاضطراب خلافاً لـده شازه فقد كان مسروراً مبتهجاً كأن رائحة البارود قد اسكرت هـذا الجندي القديم . فقال : كنت افضل ان اراك يا ديزورم بزيك الرسمي لان هؤلاء الالمان يروعهم مثل هذه التهاويل

اجابه : اراك تمزح يا ده شازه حتى في هذا المقام . على ان كلامك لا يخلو من الحكمة فان للالبسة تأثيراً في ميدان القتال واني ارى الان في هذه المعركة فرقاً تمثل طبقـات الشعب الفرنساوي وارى الاعيان اشجعهم واشدهم بأساً

— ولكني لا ارى بيننا سوى الاعيان وانا اسف لعـدم وجود جان بيننا . مسكين . انه اخذ اسيراً في معركـة سيدان وهو الان في اطراف جرمانيه واخر رسائله كتاب من مكدي برك

وهم كذلك اذا بضابط اقبل عليهم مسرعاً مع كوكبة من الفرسان وهو القبطان بروليروا الذي هجم في مرقعة بوله وهو ثابت الجيش رابط الجنان وكانت قنابل البروسيين تنهال عليه انهيـال المطر وهو ينشط جنده ويحرضهم على القتال . فهذا دنا منهم وقال : ايها الزواف المباركون . اسرعوا بالهجوم وحافظوا على قرية كوميـه لان العدو يهددها من كل جانب . فهذه اوامر الجنرال

فاجابه الجنود بالايجاب . ثم قال الضابط المشار اليه . واني اترك لكم رجلاً يرافقكم في طريقكم وهو المركيز جان ده ليزارديار

الذي عاد اخراً من بروسيه بعد ان افلت من الاسر عن طريق ايطالية. واذ درى بمركزكم طلب ان يقاتل معكم كتفاً الى كتف . والان استودعكم الله

ثم انصرف وهم يدعون له بالتوفيق

اما اصحاب جان فقد رحبوا به وهم فرحون بسلامته ولم يجدوا مجالاً للكلام لان رفاقهم الجنرد زحفوا على قرية كوميه المشار اليها على غرة من البروسيين فبوغت هؤلاء وارتدوا مدحورين امام مدافع الفرنسيس التي صبت عليهم قنابلها فلم يطيقوا نارها الحامية. فتقهقروا لساعتهم الى جهة الشمال. على ان الفوز لم يكن للفرنساويين لان البروسيين جعلوا متاريسهم في قرية لوكنه وكانت محصنة. فرأى الجنرال الفرنساوي الاوفق مهاجمتهم قبل وقوع الظلام فجمع جنوده وهم لا يتجاوزون الثمانمائة وصاح بهم قائلاً: لتحيا فرنسة. ليحي بيوس التاسع. اهجموا

فهجم الزواف الابطال بقلوب لا تهاب الموت ولا تبالي بنيران المدافع. لكن هيهات ان يدحروا العدو وهو في حصن منيع

على ان هؤلاء الابطال وان لم يحرزوا النصر فقد بينوا كيف يموت الانسان شريفاً في سبيل الدفاع عن الوطن. وكان القتلى من الفرنساويين قليلي العدد منهم الضابطان تروزوده منكوي والمسيو

ده فرتومون. وجرح الجنرال ده زون في فخذه

ولما رأى الفرنساويون القتلى تحمسوا وهجموا هجمة واحدة واطلقوا بنادقهم. وقد قاتلوا في هذه المعركة الهائلة قتالاً احبوا معه الموت حتى الجأوا العدو ان يتقهقر الى المتاريس

واتفق ان الكونت ده شازه التقى باحد الضباط الذي صوب نحوه مسدسه. فهجم عليه الكونت وصاح به صيحة عظيمة فاطلق الضابط عليه رصاصة مرت بين ذراعه وصدره والحال هجم على الضابط اثنان من الزواف واخذاه اسيرًا

اما الرصاصة فانها وان كانت اخطأت الكونت فقد اخترقت ذراع جان وكان يتبعه وكسرت كتف ديزورم وكان على مقربة منهما. فسقط ديزورم الى الارض واكب جان على وجهه واختلطت دماؤهما. فالتفت اليهما الكونت يريد مساعدتهما. لكن ديزورم صاح به ان اذهب في اثر العدو. فتبع الكونت الزواف الذين اجبروا الالمان على الفرار وملكوا بعض المنازل ووقفوا يتوقعون نجدة

ولكن انتظارهم كان عبثًا فتحصنوا باسوار البساتين والمنازل والبروسيون يطلقون عليهم من متاريسهم واضطر الكولونل ده شارت الذي كان قد قُتل جواده ان يقود العسكر راجلًا فاصيب بجراح خطرة واضطر رجاله الى التقهقر لكثرة الاعداء

وبينما كان ده كمبري يعالج باباً لبعض المنازل ليفتحه تساق

الى النافذة فسدد اليه جندي كان فوقه بندقيته ورماه برصاصة القته الى الارض صريعاً. وكانت كلماته الاخيرة الوداع يا عزيزي ده شازه اسأل الله ان يعاملني بالرحمة والرضوان

وعندها تألبت عساكر الجرمان على تلك الشرذمة الفرنساوية ليأسروها فتقهقرت وكان الكونت يمشي معهم ومسدسه بيد وسيفه بيد اخرى وقد مد الغبار فوقه سرادقاً وكان يلتفت من وقت الى اخر ليقاتل العدو الذي كاد يقترب منهُ. ولما بلغ الغابة وقف ينظر الى الكولونل ده شارت واخيه وغيرهما من رفقائه الابطال وهم بين قتيل وجريح وقال للكولونل اذ رأى ان قواه كادت تخور لتفجر الدم من جراحه : اذا شئت حملتك وحملت معك رجلًا اخر عند الحاجة

فاجاب بسذاجة : لا يا صديقي العزيز ارى البقاء خيرًا لي واما انت فامضِ في طريقك وحارب من اجل فرنسة ما استطعت

فاطاع الكونت واوغل في الغابة. وهجم الليل فلم يقف على اثر لديزورم ولا لجان وقد كان في وسعه الالتجاء الى قصر قريب لكنه فضل البقاء في الغاب وما زال واقفاً ينظر عن كثب الى قرية لوكنه التي جعلها الاعداء طعاماً للنار حتى انقطعت اصوات القتال. وعندما سمع هتاف المنتصرين وتهليلهم سقط ذلك الجندي

الشيخ الى الارض يبكي ويعول كالطفل الصغير

ولما وصل الى بتاي طلب سجل الفرقة الاولى من الزواف وعلم منه بان الثلاثمائة جندي الذين خرجوا الى القتال في ذلك الصباح قد فقد منهم ٢٠٧ انفار واحد عشر ضابطاً بين جريح وقتيل واسير وعرف ان راعول جرح وجرح ايضاً ابوه وجان

هذا ما عرفه من امرهم وسار والهم والقلق يتنازعانه لاحقاً برفاقه الشجعان الذين كانوا يتقهقرون في وادي اللوار قاصدين بواتيه

٢٢

المستشفى

ان جان وديزورم وولده راعول وجدهم قوم من الجرمان في ساحة الوغى وقد كادوا يهلكون جوعاً وبرداً فحملوهم الى منزل الاب توري في لوكنه وهو كاهن شيخ فاضل كان يقوم بتمريض الجرحى والعناية بهم في منزله الذي جعله مستشفى. وكانت جراح ديزورم وراعول اقل خطراً من جان الذي اخذته حمى محرقة واصابه هذيان اياماً عديدة

ففي صباح احد الايام كان جان يهذي من شدة الحمى ويتكلم كلاماً متقطعاً كأنه في حلم قال. عزيزتي كرستيانه.. المسيو ديزورم مصيب.. ريموندة.. ريموندة.. الجن.. الجن

ثم فتح عينيه فرأى ديزورم في زاوية المنزل يتحدث مع راعول ويده المكسورة مربوطة الى عنقه. ورأى كرستيانه الى جانبه وريموندہ واقفة تنظر اليه وعليها شعار جمعية الصليب الاحمر فخاطبته كرستيانه وقالت:

أعرفتنا يا عزيزي جان انا وريموندہ

ففتح جان عيناه ايضاً وقال. نعم لقد عرفتكما وعرفت المسيو ديزورم وراعول اني تذكرت الان الغاب الذي حاربنا فيه الجرمان. اين ده شازه

— في بواتيه وهو سالم بحمد الله

— ومدلين

— في دير القديس موتير بالقرب من تور

— لقد اشتدَّ المرض عليَّ جدًا اليس كذلك

— نعم ولكن قد زال الخطر الان والحمد لله ونحن عازمون على الذهاب بك الى مرسيلي اذ قد استأذنَّا في ذلك وعرباتنا في الانتظار منذ ايام

— اذن فلنسافر

— نسافر عندما تتماثل الى العافية

— هذا سيكون قريباً ان شاء الله لانني ارى نفسي مرتاحاً للغاية

وكان يتقدم الى الصحة كما تنبأ. وما كاد يصير في طاقته احتمال هزة العربة حتى قاموا جميعاً وسافروا عن طريق الساتيورن بسرعة على ضفاف نهر اللوار حتى بلغوا لِدْ فرسيلي. وقد اثرت متاعب الطريق ومشاق السفر في جان واصابه قشعريرة عند ما اقبلوا على الليزارديار

ولحظ ذلك ديزورم فقال للكونتة. اني خائف على جان يا سيدتي ألّا يكون مرتاحاً في قصركم الكبير اذ ان اسباب التدفئة غير متوفرة فيه. وارى الافضل بقاءكم معنا في الليزارديار توفيراً على راحتكم افلا توافقيني على هذا يا ريموندة

فاجابت وقد صبغها الحياء: نعم يا والدي

وقال جان بلسان متلعثم: وانا ايضاً

ثم افصح قائلاً وقد تذكر ماضيه: نعم فلنذهب الى الليزارديار

ولم تمضِ ساعة من الزمان حتى كان جان في غرفة دافئة من غرف القصر وهو يقول في نفسه: من كان يظن منذ عام انني ادخل هذا القصر دون سخط ولا مرارة — ولم يدخله فقط بل مكث فيه نحواً من ستة اسابيع عائشاً بها بين اعز الناس واصفاهم وداً

ولم يبدُ منه ولا من ريموندة كلمة تدل على انس وموالاة لان افكارهما كانت مشتغلة بمواضيع اخرى مثل مصائب فرنسة والانباء المكدرة بحصار باريس تلك المدينة العظيمة التي كانت

هدفاً للمدافع وعرضة للمجاعة التي كانت اشد فتكاً من قنابل العدو

وكانت الجنود الفرنسوية في تقهقر والالمان يعيثون في البلاد حتى ان ضفاف نهر المولن المعتزل لم تسلم من وطء اقدامهم . فكانت عساكرهم تجوب تلك النواحي بنظام وهدوء كأنها في بلادها ووديان فرنسة تردد صدى اغاني البروسيين الجارحة

اما كرستيانه وريموندہ وجان وديزورم فكانوا اذا التقوا في طريقهم بعساكر الاعداء نظروا الى بعضهم بعض ذلاً وانكساراً ثم يدخلون الى منازلهم بحزن هيهات ان يقبل العزاء . وكان ديزورم اشدهم حزناً لان الانتصار على فرنسة كان يعده انتصاراً على التمدن العام وابادة جميع اختراعاته وتغلب القوات الوحشية على الحضارة وعقبة في سبيل التقدم والمستقبل .

ولعل اموراً غير هذه كانت تشغل بال ديزورم اذ قد ورده رسائل كان يقرأها ولونه يكمد ولم يدرِ احد بمضمونها سوى ابنته فقط

واتفق ذات يوم ان جان رأى ريموندہ قلقة البال مشغولة الخاطر على غير عادتها فخاطبها وهو بين الاحجام والاقدام قائلاً: قولي لي بحقك ما سبب حزنك

قالت . ان حزني ناتج عن حزن والدي فلا يتعلق بي . ولم ترد

على هـذا ولا جان ألح عليها بالسؤال لكنه تعجب من كلامها الغامض

وورد ذات يوم على جان كتاب قرأه جهراً امام ديزورم وريموندو وكرستيانه. والكتاب من يوناثان مولو الاميركي يقول فيه ان راس مال المعمل الذي وضع جان نقوده فيه قد زاد زيادة عظيمة حتى بلغ اضعاف قيمته وسببه الصادرات التي صدرت منه لفرنسة

وبعد قراءة الكتاب قال جان متأثراً: لعمري ان هذا النجاح الذي لم يكن منتظراً يجعلني حزيناً للغاية

فقال له ديزورم: لماذا تحزن ونجاحك حسن ونقودك تفيد فرنسة. ولا تتعجب من سعدك لانه يعوض عن نحس غيرك. رحم الله فرنسة الامة العظيمة المتكبرة التي ادت بانغلابها فدية كبريائها وآثامها...

*

بعد ان وضعت الحرب اوزارها وصودق على شروط الصلح اطلق سراح الاسرى من المتطوعين فعاد صديقنا القديم الكونت ده شازه الى الليزارديار يبحث عن قرينته وعن جان الذي كان قد نال الشفاء التام

ولما كانوا يتأهبون للانصراف دعتهم ريموندو الى القاعة الكبرى وهناك خاطبت جان بحضرة والدها واخيها والكونت

والكونتة بهذا الكلام:

ان والدي لا يعلم بشيء مما انا فاعلته: ولكني لا اظنه إلا يوافقني على مقصدي ويقرّه لان والدي وان لم يكن الان معدماً لكنه في اضطراب وعسر مالي من جهة معامله ومناجمه في الولايات المتحدة. واشغاله في باريس قد حل بها الخراب وعليه مطاليب عديدة يدعوه الشرف الى القيام بها. فيا مولاي المركيز انني رفضت قبلًا ان ارد لك ملك اجدادك وكنت غير مصيبة في ذلك وكنت انت ولم تزل اكثر مني مروءة وشهامة. فالان اذ اصبحت انت الغني فادخل وتسلم ملكك

— بشرط واحد لا غير يا سيدتي. . . وهو انك تبقين مقيمة فيه

— سأفعل ذلك بسرور اذا كان والدي راضياً عنه. ونظرت الى والدها نظرة تعطف

فصاح الكونت:

نعم نعم انه بلا ريب يرضى عن ذلك تمام الرضى. اتظنان ان لا علم له بما يجري بينكما فقد اخبرته منذ سنة بالدسيسة

واذ ذاك قدم ديزورم يده الى الكونت وجان وترامت ريموندة بين ذراعي الكونتة وهي تقول:

ان مرجع الفضل في هذا كله اليك يا عزيزتي كرستيانه

— لا فضل لي في هذا يا حبيبتي بل الفضل لجميل اخلاقك

وتعبدك لله عز وجلّ وللعذراء القديسة عليها السلام وبذلك نلتِ ما نلتهِ من النعمة والقوة والعون

*

كل ذلك جرى في زمان وجيز. واصحابنا هؤلاء يتمتعون ما عدا كلوديون وبيرارد برغد العيش ويتقاسمون مسرات الحياة التي هم خليقون بها

فالمسيو ديزورم لم يزل عضوًا في المجلس. ووالده راءول هو نائب. والكونت ده شازه لا يزال ضابطاً في الجندية وامير صيادي الذئاب وهو اجمل شيخ بين اقرانه

وتزوجت مدلين بشاب مناسب لها بحسب انتخاب والدتها الحكيمة. واحب شيء الى كرستيانه انما كان شعرها الابيض الذي كانت تظهره دليلًا على وقارها وكمالها

اما المركيزة ريموندہ ده ليزارديار فقد رزقت ستة بنين ابنتين واربعة صبيان

ولما ولد الصبي الاخير عانق الكونت نسيبه جان وقال لهُ :

لك الهناء بهذا المولود السعيد الذي قرت العيون وطابت النفوس بمولده. ولسوف يكون لفرنسة القديمة بنون اشداء يدافعون عن شرفها في الحرب المقبلة

تمت

اصلاح غلط

صفحة	سطر	غلط	صواب
٣	٥	اضبطتي	اضبطي
٨	٨	روسمه	ورسمه
١٩	١٥	تظن	اتظن
٣٣	١٥	مداعبتي	مداعبتك
٤٦	١٠	دالفادة	الفادة
٤٩	١٣	العربية	العربة
٥٥	١١	ثور	تور
٥٧	٥	ارجوك	ارجو منك
٥٩	٦	ارجوك	ارجو منك
٦١	١٦	نسيباً	نسيبه
٦٩	٥	فيه	منه
٧١	١٠	بردیار	برویار
٨٠	٤	الصياديين	الصيادين
٨٠	٧	لا	الا
٨٧	٦	المعارضين	العارضين
٩٥	١٦	الفرقة	الغربة
٩٧	١٤	شربت شيئاً	شربت مدلين شيئاً
٩٩	٥	نستحضره	نستمطره
١٠٣	٨	تحردي	تمردي
١٠٨	١٤	تنسبه	تنسب
١١٠	١٨	سكوتها	سكونها
١٢٠	٧	المالية	الحالية
١٢٧	١٧	اخبر	اخبرك
١٣٨	١	يستلتفتوا	يستلفتا
١٤٢	٤	قصري	اسمي

UB LIBRARY

DATE DUE

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00511337